التفسير التحليلى

إعداد

د/ محمد حسن على محمد

كلية الآداب

قسم الدراسات الإسلامية

العام الجامعى

2025-2024

بيانات الكتاب

الكلية : الآداب

الفرقة :الثالثة

المادة : التفسير التحليلى

التخصص : الدراسات الإسلامية

عدد الصفحات : ١٦٣

المؤلف :دمحمد حسن

الرموز المستخدمة

نص القراءة والدراسة

نص التفكر

المحتويات

المقدمة ٤- ٦

الفصل الأول تعريف التفسير وأقسامه وأنواعه ٨ -٣١

الفصل الثانى : دراسة تطبيقية على سورة البقرة ٣٢-١٦١

المصادر والمراجع : ١٦٢ -١٦٣

المقدمة

الحمدلله رافع لمن انخفض لجلاله، وفاتح البركات لمن انتصب لشكر أفضاله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين، أنزله هداية عالميه دائمة، وجعله للشرائع السماوية خاتمه، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، كان خلقه القرآن، ووصيته القرآن، وميراثه القرآن، القائل(خيركم من تعلم القرآن وعلمه). صلى الله عليه وعلى آله الهادين، وأصحابه الذين شادوا الدين، وشرف وكرم ربنا من سار على دربهم إلى يوم الدين.

وبعد..

فإن القرآن الكريم لا يزال بحرا زاخرا بأنواع العلوم والمعارف يحتاج من يرغب في الحصول علي لآلئه ودرره أن يغوص بأعماقه، ولا يزال القرآن الكريم يتحدى أساطين البلغاء وجهابذة العلماء بأنه الكتاب المعجز المنزل علي النبي الأمي صلى الله عليه وسلم شاهدا بصدقه، يحمل بين دفتيه برهان كماله وآية إعجازه، ودليلا على أنه تنزيل الحكيم العليم (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)

وعلي كثرة ما كتب العلماء وألفوا وعلى كثرة ما تحتويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمه وكتب نفيسة خدم بها العلماء كتاب الله الجليل يبقى القرآن زاخرا بالعجائب، مملوءا بالدرر والجواهر يطالعنا

بين حين وآخر بما يبهر العقول، ويحير الألباب بما فيه من إشراقات نورانية وأودية ناجحة لما في هذه الحياة من أدواء وعلل.

ولا يزال علم التفسير بحر الحياة يحتاج إلى من يغوص في أعماقهلاستخراج كنوز القرآن الثمينة، واستنباط دقائقه وأسراره، ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علما بكلام رب العزة جلا وعلا، وأن يدرك أسراره، ودقائقه وإعجازه وإن زعم أنه وصل إلى درجة الكمال! ومن هنا فقد تعددت اتجاهات المفسرين لكتاب الله عز وجل من مستنبط للأحكام الفقهية إلى باحث عن وجوه البلاغة والإعجاز، إلى غير ذلك من الوجوه والاتجاهات.

ومن هنا كان للتفسير أربعة مناهج واضحة المعالم:

أ- المنهج التحليلي

ب- المنهج الإجمالي

ج- المنهج الموضوعي

د- المنهج المقارن

ولما كان المنهج التحليلي أكثر فائدة وشمولا وأعم نفعًا لأنه هو الذي يبين ما في القرآن من دقائق، ويكشف عما فيه من أسرار، فقد اهتم به علماؤنا، لذا سنقوم بتعريفه وبيان خطواته العلمية وأهميته مع دراسة تطبيقية للآيات من سورة البقرة (١ إلى ٣٨)

وتنتظم الدراسة فيما يلي:

الفصل الأول: تعريف التفسير وبيان أقسامه وأنواعه، ثم التفصيل للتفسير التحليلي.

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية للآيات من سورة البقرة (١ إلى ٣٨)

الفصل الأول مقدمة في علم التفسير

المبحث الأول

تعريف التفسير وبيان أنواعه

التفسير لغة: بمعنى: البيان يقال: (فسر الشيء، وفسره، أي: أبانه والمفسر: كشف المغطى. والتفسير: البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل وقيل ايضا: بمعنى الشرح والبيان، وتفسير القرآن: يقصد منه: توضيح معاني القرآن، وما انطوت عليه آياته من عقائد وأسرار، وحكم وأحكام (مشار في الهامش إلى أنظر لسان العرب لابن منظور مادة (ف، س، ر) ١٥/٥ انتهى المشار).

مما سبق يمكن القول: أن اشتقاق كلمة التفسير يدور حول عده معانى متقاربة وهى الكشف والإيضاح والبيان والإظهار.

التفسير اصطلاحا: اختلف العلماء في تعريفهم للتفسير في الاصطلاح فذكر الإمام أبو حيان في مقدمة البحر تعريفا من أفل التعريفات المذكورة في تعريف التفسير حيث ذكر أن التفسير: علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك.

وشرح هذا التعريف فقال: (فقولنا علم هو جنس يشمل سائر العلوم. وقولنا يبحث فيه عن كمية النطق بألفاظ القرآن هذا هو العلم القراءات. وقولنا ومدلولاتها، أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي

يحتاج إليه في هذا العلم. وقولنا وأحكامها الافرادية والتركيبية هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب شمل بقوله التي تحمل عليها ما لا دلالة عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد، فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر، وهو المجاز. وقولنا، وتتمات لذلك، هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما أبهم في القرآن، ونحو ذلك).

وعرفه الامام الزركشي بقوله: (علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ).

فهذه التعاريف تدور كلها حول معاني متقاربة تدل علي أن علم التفسير علم يبحث به عن معرفة مراد الله تعالى من كتابه الكريم.

أقسام التفسير

وينقسم التفسير إلى قسمين:

أولاً: التفسير بالمأثور:

المأثور في اللغة: أَثْرَت أثراً من باب قتل نقلته والأثر بفتحتين اسم منه وحديث مأثُور أي منقول (وقيل: الأثر: بفتحتينما خلفه السابقون، والخبر المروي، والسنة الباقية، والجمع آثار وأثور، والمأثور ما ورث الخلف عن السلف، والحديث المروي).

أما تعريفه في الاصطلاح: يقول الزرقاني: (هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه).

وعلي ما سبق يكون التفسير بالمأثور أربعة أقسام:

التفسير الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

التفسير الثاني: تفسير القرآن بالسنة.

التفسير الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة.

التفسير الرابع: تفسير القرآن بأقوال التابعين.

وقدأوضح ذلك الامام ابن تيمية –رحمه الله – فقال: (فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقران فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، وما اختصر

في مكان قد بُسِط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحه له ءءء وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوا من القرائن والاحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم ءءء وإذا لم تجد التفسير في القران ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين

ثانياً: التفسير بالرأي:

التفسير بالرأي إذا كان مستندا إلى ما يجب الاستناد إليه من معرفة المفسر لكلام العرب، متمكناً من علوم اللغة العربية وغيرهما من الأدوات التي تعينه على التفسير، بعيداً عن الجهالة والضلالة، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم، ومن أهم الأمور التي يجب على المفسر بالرأي مراعاتها هي:

الأول: النقل عن رسول الله ــصلى الله عليه وسلم- مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً، وخصه بعضهم بأسباب النزول، ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يشتهر من كلام العرب.

الرابع: الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع.

من ذلك يكون التفسير بالرأي ليس محموداً مطلقاً، وليس مذموماً مطلقاً، وإنما هو محمود إن التزم المفسر ما سبق، وإلا فمذموم.

ومن هنا يكون التفسير بالرأي: (عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب، ومناحيهم في القول، ومعرفة الألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ من آيات القرآن وغير ذلك مما يحتاج إليه المفسر). فالتفاسير مهما تعددت وتنوعت لا تخلو من حالة من حالات ثلاث: تفسير بالمأثور، أو بالرأي، أو جمع بينهما، ولكل حالة من هذه الحالات قواعد وشروط، يجب علي المفسر أن يتقيد بها، وألا يخرج عنها.

يقول الشيخ الزرقاني: (فمن فسر القرآن برأيه أي باجتهاده ملتزما الوقوف عند هذهالمآخذ معتمداً عليها فيما يري من معاني كتاب الله كان تفسيره جائزا خليقا بأن يسمى التفسير المحمود، ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها كان تفسيره ساقطا مرذولا خليقا بأن يسمى التفسير غير الجائز أو المذموم. فالتفسير بالرأي الجائز يلاحظ فيه الاعتماد علي ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه التابعين مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفا بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيرا بقانون الشريعة حتى ينزل كلام الله علي المعروف من تشريعه (مناهل العرفان للزرقاني ١/٤٨)).

وقد اختلف العلماء في حكمه:

لم تتفق آراء العلماء حول موقف من التفسير بالرأي، فوقفوا بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

١-القانون بالمنع (انظر: التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٨٦)

قالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً اديبا متسعا في معرفة الأدلة والفقه والنحو، وغير ذلك من العلوم، وإنما عليه أن ينتهي إلى ما روى عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين.

استدل المانعون للتفسير بالرأي بأدلة عديدة منها:

أ) أن القرآن الكريم نص على تحريم القول على الله بغير علم، والتفسير بالرأي قول على الله بغير علم. ومن هذه النصوص القرآنية قوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) سورة الإسراء آية ٣٦.

وقوله تعالى: (وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يفكرون) (سورة النحل آية ٤٤)

فقد أضاف البيان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

(ب) كذلك فإن السنة شددت على التحريم في هذه المسألة. ومن هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) (مشار في الهامش إلى: سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ه/ ١٩٩، رقم (٢٩٥٢)، وقال: هذا حديث حسن وضعفه الألباني بنظر ضعيف الجامع الصغير رقم (٥٧٣٦) الطبعة الثالثة: المكتب الإسلامي ١٤١٠، ١٩٩٠)

(ج) كان السلف رضى الله عنهم من الصحابة والتابعين يعظمون تفسير القرآن، ويتحرجون من القول فيه بآرائهم.

من ذلك ما ورد عن الصديق أبي بكر – رضي الله عنه– أنه قال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم (مشار في الهامش إلى: جامع المسانيد والسنن الهادي لأقومسنن لأبن كثير ٣٧/ ١٦، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٥ ه).

٢- القائلون بالجواز (التفسير والمفسرون للذهبي) (١/ ١٨٨)

هؤلاء يرون أن من كان مؤهلاً لتحمل تبعات القول في كتاب الله تعالى فيه ذلك، لأنه حصل من العلوم العقلية والنقلية والروحية ما جعله أهلًا لذلك الاجتهاد.

أدائهم:

(أ) أن القرآن الكريم نص على وجوب تدبر كتاب الله. ومن ذلك قوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها) (سورة محمد) (آية ٢٤)

(ب) دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما عندما قال (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) (مشار في الهامش إلى: لدرجة البخاري، كتاب الوضوء_ باب وضع الماء عند الخلاء ٦٦/١، رقم الحديث ١٤٣). ولو كان التفسير والتأويل مقصور على السماع والنقل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس أمر أخر وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد وهذا بين لا إشكال فيه.

(ج) كذلك اختلاف الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم في تفسير بعض الآيات على وجوه، ولو كان التفسير عن طريق النقل وحده لما وقع الاختلاف بينهم، فدل على أن تفسيرهم لبعض الآيات كان بالرأي

(انظر بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فيد الرومي (ص ١٠٢)، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٣ هـ).

والخلاف بين الفريقين لفظي لا حقيقي، وبيان ذلك أن الرأي قسمان: قسم جار على

موافقة كلام العرب ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنه، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي، وقسم غير جار على قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط التفسير، وهذا هو مورد النهي ومحط الذم، وعليه يحمل كلام المانعين للتفسير بالرأي.

فلا ينبغي التخوف من جواز التفسير بالرأي إذا وافق قواعد اللغة ونصوص الشرع المطهر، ولم يخرج عنهما، وهذا القول قول أهل السنة، ومن ذكر عنهم خلافاً، فإنه لم يفهم مرادهم، وما نقل عنهم من خلاف في ذلك فهو خلاف ظاهري لا يستحق أن يسمي اختلافا، إذ سرعان ما يزول ذلك الاختلاف والتعارض عند التأمل، وإعمال النظر والتفكير، فالخلاف مبني علي اختلاف أنظارهم في المراد من التفسير بالرأي.

وهناك أمور يجب علي المفسر اجتنابها عمدا يفسر كلام الله تعالى بالرأي.

أولاً: التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وعدم تحصيل العلوم التي يجوز بها التفسير.

ثانياً: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسراره وحجبه عن عباده.

ثالثاً: السير مع الهوى والاستحسان، فلا يفسر بهواه ولا يرجح باستحسانه.

رابعاً: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً، فيحتال في التأويل حتي يصرفه إلى عقيدته، ويرده إلى مذهبه بأي طريق أمكن، وإن كان غاية في البعد والغرابة.

خامساً: التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، وهذا منهي عنه شرعاً، لقوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (سورة الأعراف آية ٣٣).

الفصل الأول: مقدمة في التفسير

أنواع التفسير وموقع التحليلي منها:

لقد تنوعت مناهج المفسرين لكتاب الله تعالى إلى انواع عديدة، فمنهم من عني بالتفسير الاجمالي، بحيث يقوم تفسيره على الإيجاز والاختصار دون توسع أو تفصيل، ومنهم من توسع توسعاً شاملاً بحيث يقف أمام كل آية ويحللها تحليلاً كاملاً، ومنهم من قام بإجراء مقارنات بين عدة مفسرين، ثم يعرض عملهم علي الميزان الصحيح في تحديد أحسن طرق التفسير، ومنهم من اهتم بمتابعة الموضوع الخاص والبقاء معه، وعدم الخروج عنه إلى موضوعات أخرى.

وعلي هذا يمكن ان يقال: إن انواع التفسير من حيث مناهج المفسرين أربعة:

الاول: التفسير الاجمالي: وهو تفسير يقوم علي الإجمال والإيجاز، بحيث يقوم المفسر بتفسير القرآن كله، مقدماً المعنى الإجمالي للآيات، دون التوسع أو التفصيل، أو تطويل في التحليل، ودون زيادة في المباحث التفصيلية في العقيدة أو اللغة أو الفقه.

ومن التفاسير الإجمالية للقرآن الكريم: الوجيز في تفسير الواحدى المسمى (الكتاب العزيز)، ومجاز القرآن لأبي عبيده معمر بن المثنى، وتفسير الجلالين للسيوطي والمحلي، والسعدى.

الثاني: التفسير التحليلي: حيث يقف المفسر امام كل آية، ويقوم بتحليلها تحليلاً موسعاً مفصلاً، ويتحدث أثناء تفسيره عن مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل في العقيدة واللغة والنحو والبلاغة، وفي الروايات والأخبار والقراءات، وفي الاحكام والتشريعات، وفي الخلافيات والمناقشات والأدلة والبراهين.

ويقدم المفسر في ذلك ثقافة موسوعية منوعة شاملة فهناك تفاسير متوسطة الحجم والكم، مثل تفسير الزمخشري، وتفسير البيضاوي، وتفسير النسفي، وتفسير ابن جُزّيّ الغرناطي.

وهناك تفاسير مفصلة أكثر، مثل تفسير ابن كثير، وتفسير ابن عطية، وتفسير أبي السعود، وتفسير القاسمي.

وهناك تفاسير موسعة كبيرة الحجم، مثل تفسير الطبري، وتفسير الرازي، وتفسير الألوسي، وتفسير البقاعي، وتفسير ابن عاشور.

ويجمع بين هذه التفاسير كلها، أنها تفاسير تحليلية، على اختلاف مناهجها، والمدارس التي انتمى لها المفسرون.

الثالث: التفسير المقارن: عبارة عن مقارنات بين عدة مفسرين على اختلاف مناهجهم، حيث يجمع بين تفسيرهم لسورة قصيرة، أو مجموعة آيات، أو موضوع من موضوعات الإيمان أو الفقه أو اللغة، وذلك ليتعرف على منهج مفسر وطريقته في تناول موضوعه ومدى التزامه بمنهجه وسيره على خطوات طريقته، ثم يقارن بينه وبين

المفسرين الآخرين في ذلك، ثم يعرض عمل هؤلاء المفسرين على الميزان الصحيح، في تحديد أحسن طرق التفسير.

الرابع: التفسير الموضوعي: هو عبارة عن اختيار موضوع محدد من موضوعات القرآن الكريم، يبقى معه، ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرع منه.

المبحث الثاني:

التفسير التحليلي مفهومه وخطوات وأهميته:

فالتفسير التحليلي: هو منهج في تفسير القرآن الكريم يراعى فيه الترتيب التعبدي للآيات والسور أو الآيات لقطاع معين داخل السورة الواحدةيقوم على منهج كفيل بتوضيح مراد الله تعالى من كلامه.

- وله عدة مسميات منها:

التفسير الموضعي: هو الذي يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم، متتبعاً ترتيب الآيات في سورها، وهذا اللون قد يكون بالمأثور، أو بالرأي المحمود يكون تحليلياً عند التفصيل، أو إجمالياً عند الاختصار، وقد يكون مقارناً إذا اتبع المفسر منهج الموازنة.

ويمكن أن نطلق على التفسير الموضعي اسما أخر، وهو التفسير التجزيئي.

وهو ان يقوم المفسر بتجزيءالآية إلى عدة جمل ثم يتكلم عن جملها جملة جملة وقد يتكلم عن كلماتها كلمة كلمة.

والخلاصة أن التفسير التحليلي قد يسمى التفسير الموضعي وقد يسمى التفسير التجزيئي.

أهم المؤلفات في التفسير التحليلي:

هناك تفاسير متوسطة الحجم والكم مثل:

- تفسير الزمخشري.

- وتفسير البيضاوي وتفسير النسفي ما تفسير ابن جزي الغرناطي.

- وهناك تفاسير مفصله اكثر مثل تفسير ابن كثير وتفسير ابن عطيه وتفسير ابي السعود وتفسير القاسمي وهناك تفاسير موسعه كبيره الحجم مثل تفسير الطبري وتفسير الرازي وتفسير الالوسي وتفسير البقاعي وتفسير ابن عاشور.

والذي يجمع بين هذه التفاسير كلها أنها تفاسير تحليلية على اختلاف مناهجها والمدارس التي انتمى لها مفسروها.

- قواعد التفسير التحليلي:

التفسير التحليلي يقوم على منهج كامل بتوضيح مراد الله سبحانه وتعالى من كلامه ولهذا فانه يعتمد على مجموعتين من القواعد.

المجموعة الأولى: القواعد العامة

التي لا غنى لأي مفسر عنها أيا ما كان اتجاهه فهي تتمثل في أفضل الطرق لتفسير القرآن (مشار في الهامش إلى: التفسير التحليلي للقرآن الكريم، صبري المتولي: ١٣).

١- تفسير القرآن بالقرآن فما أجمل في موضع فصل في موضع آخر.

٢- تفسير القرآن بالسنة؛ فالمهمة الأولى للسنة بيان التنزيل.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة، فهم أطهر أجيال الأمة قلوبا، وأكثرهم علما وأقلهم تكلفا (مشار في الهامش إلى: المصدر نفسه).

٤- تفسير القرآن بأقوال التابعين إذا أجمعوا على رأي، أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم.

المجموعة الثانية: القواعد الخاصة:

١- براعة الاستهلال: أي نقل القارئ في رحلة سريعة عبر القرون حتى يصل إلى عهد النبوة، فيعيش لحظات إيمانية في الجو الروحي الذي تنزلت فيه الآيات الكريمة، ومن ثم فانك سترى كل سىاق يبدا بالحديث عن مناسبة السياق لما قبله، وسبب النزول، فإن معرفة السبب يعين على فهم المسبب (مشار في الهامش إلى: المصدر السابق).

٢- التحليلي اللغوي: أي تحليل الآية الكريمة إلى أبسط الوحدات اللغوية التي تتألف منها وهي:

أ- الصوت اللغوي: كما وكيفا ومخرجا وصفة، وبيان ما يتمتع به من تأليف واستباق في الكلمة القرآنية عن طريق الموازنة

بين القراءات العشر المتواترة لتأكيد ظاهرة الإعجاز الصوتي للقرآن.

ب- الكلمة: وما يتميز به من تكوين حكيم محكم، وما تختزنه في داخلها من دلالة موحية ومعبرة.

ج- الجملة: وما تتمتع به من براعة البناء (مشار في الهامش إلى: التفسير التحليلي للقرآن الكريم، صبري المتولي: ١٤).

٣- التحليل البلاغي: وأبرز علوم البلاغة الثلاثة:

أ- علم المعاني: يبحث في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ب- علم البيان: يبحث في وضوح الدلالة وخفائها.

ج- علم البديع: يبحث في وضوح المحسنات اللفظية والمعنوية (توجد إشارة في الهامش إلى: المصدر نفسه: ١٤).

والهدف المشترك لهذه العلوم هو الكشف عن الإعجاز القرآني والذي يكمن في رأينا في براعة الجملة القرآنية.

يقول السيوطي: هذه العلوم الثلاثة علوم البلاغة وهي من أعظم أركان المفسر لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الأعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم (توجد إشارة في الهامش إلى: المصدر نفسه. ويراجع جواهر البلاغة لأحمد الهاشمي: ٤).

٤- تجلية أصل المعنى: أي تقديم المعنى المصفى، المبرأ من التناقض، والمستفاد من خلاصة كتب التفسير بالمأثور، المدعم بالسنة الصحيحة، والأثر الثابت، بعد تنقيته من الشوائب والزوائد

والأسرائيليات وردئ الأقوال وسوء التأويل حتى يؤدى دوره الحقيقي المنوط به وهو الهداية إلى اقوم سبيل.

قال تعالى: (إن هذا القرءان يهدي للطى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيراّ)

٥- إجمال هداية الآيات: أن تكون الهداية مستمدة من واقع المحتوى القرآني نفسه العقيدة ــ الشريعة ــ الأخلاق لكى يتمكن السالكون إلى

رحاب رب العالمين من استصحاب الأنفع وهم يرتحلون من سياق ويحلون بسياق آخر.

٦- خصوصية الشكل: وذلك بتفسير السورة إلى عدة سياقات مرقمة، وكل سياق يعالج هدفا قرآنيا معينا له ارتباط بما قبله ومابعده في سبيل إبراز الهدف الكلي للسورة، أو الهدف الكلي لقطاع معين داخل السورة.

ثم ينقسم السياق الواحد إلى خمسة معالم ثابتة وهي:

أـ مناسبة السياق لما قبله، وسبب النزول.

ب ـ من مباحث اللغة: الأصوات ـ الصرف ـ النحو ـ المعاجم الدلالة.

ج ـ من مباحث البلاغة: المعاني ـ البديع ـ البيان.

ح ـ أصل المعنى أو لطائف معانى الآيات.

خ- ما ترشد اليه الآيات من علم العقيدة – علم الشريعة – علم تزكية النفس (الأخلاق والأداب)

٧- الاستيعاب الدقيق للمضمون: وهذا ميسر بفضل الله تأسيا على الركائز الست السابقة اذ انها بمثابة المقدمات المنطقية الضرورية المؤدية لاهم النتائج.

أهمية التفسير الموضعي (التحليلي):

١- المفسر في التفسير الموضعي ينظر في القران وسوره وآياته، يبدأ منه وينتهي إليه (ويجلس أمام القران، ويتلقى منه، ويستمع إليه ويسجل ما يأخذه منه).

٢- المفسر في التفسير الموضعي التحليلي يكتفي بتحليل الآيات وجملها وتراكيبها واستخراج دلالاتها التفصيلية الجزئية.

٣- يقدم فيه المفسر للمسلمين علما تفسيريا نظريا، ومعلومات تفسيرية ثقافية ومجالات علمية متنوعة في العقيدة والحديث والفقه واللغة والبلاغة والنحو وغير ذلك.

٤- يخدم المفسر في التفسير التحليلي الآية والجملة والمفردة القرآنية.

٥- المحافظة على الوحدة العضوية لكل سورة والتي تتجلى بالملامح الشخصية وحينئذ يتسنى تطبيق علم المناسبة بين الآيات والسور.

(الخطوات العلمية المنطقية للتفسير التحليلي)

- الخطوة الأولى: ذكر النص سواء أكان أيه أو جزء من أية أو أكثر من آية أو سورة كاملة، معنونا بما يتضمنه النص من معانٍ وأن يكون عنوان النص جامعاً مانعاً. جامعاً لمعاني النص وما يتضمنه من مواضيع وأهداف ومحاور، مانعاً للخلل والقصور.

- الخطوةالثانية: القراءات القرآنية المتعلقة بهذا النص سواء كانت قراءات بالأداء من إمالة أو فتح أو ترقيق أو تفخيم أو مد أو قصر أو متوسط أو كانت قراءات باختلاف الحروف أو الكلمات مع بيان علة كل

قراءة وحجتها وتوجيهها والمقارنة بين القراءتين أو الأكثر في اللفظة أو الجملة الواحدة مع ذكر أسماء القراء.

وتقدمت القراءات على سائر الخطوات لأنها هي النص القرآني نفسه.

والقراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها فإذا ثبتت لم يردها قياس عربية.

ولافشولغة، وتنوع القراءات بمعنى أو بمنزلة تعدد الآيات والمقصود بها إنه إن كان لكل قراءة معنى يغاير معنى القراءة الأخرى وهما في موضع واحد، ولم يمكن اجتماعهما في شيء واحد بل يتغقان من وجه أخر لا يقتضي التضاد، فيهما بمنزلة الاثنين.

مثال على ذلك:

قال تعالى: (ذو العرش المجيد) وهي قراءة (المجيد) فقراءة الرفع تكون صفة لله عز وجل وعلى قراءة الجر (المجيد) يكون صفة للعرش فكأنهما آيتان.

– الخطوة الثالثة: أسباب النزول إن وجدت للنص المدروس، لأن معرفة سبب النزول سبب قوي لفهم النص المنزل كما ذكر العلماء الطبري وابن تيمية، والسيوطي وأن الجهل بسبب النزول يؤدي إلى الخطأ في تفسير (النص).

– سبب النزول: وهو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيامه وقوعه.

تعد معرفة أسباب النزول من الشروط الأساسية للمفسر إذ لا يمكن القول في التفسير إلا بعد معرفة أسباب النزول.

فوائد معرفة أسباب النزول:

١- معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فهما شرعه بالتنزيل وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن، أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا حين يعلم التشريع الإسلامي قلم على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان.

٢- الاستعانة على فهم الآية ونفع الأشكال عنها حتى قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

الخطوة الرابعة: مناسبات النزول وهي ظروف النزول المكانية والزمانية من حيث النص مكي أو مدني قبل الهجرة أو بعدها مع ذكر الأحداث التي صاحبت النزول، وهذه غير أسباب النزول، بل معرفة النص من حيث هو ليلي أو نهاري، شتوي أو صيفي، جبلي أو سهلي، وعدد الملائكة الذين نزلوا به.

من فوائد معرفة المكي أو المدني معرفة الناسخ والمنسوخ،

وللناس في ذلك ثلاث اصطلاحات:

١- أن المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة.

٢- المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة.

٣- المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

ومن فوائد العلم بالمكي والمدني:

١- تمييز الناسخ من المنسوخفيما وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد.

٢- معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام.

٣- الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف.

الخطوة الخامسة: مناسبة النص لما قبله ولما بعده، وهذا يسمي علم المناسبة وهو أشرف علوم القرآن الكريم ولا يعرفه إلا قليل من العلماء، كما ذكر ذلك الإمام الرازي ت (٦٠٦ ه) وبهذا العلم يعرف سر الأعجاز البياني للقرآن الذي هو النظم الذي قال به أكثر العلماء قديماً وحديثاً، لمعرفة أول النص علي ما سبقه في القرآن، ولمعرفة مناسبة آخر النص مع ما بعده في القرآن الكريم.

الخطوة السادسة: تحليل الكلمات ومشتقاتها وبيان تصريفها ومعناها مع وجوهها ونظائرها إن وجدت، وفي هذه الخطوة يؤكد على غريب ألفاظ القرآن والصعبة منها، ولا يمنع ذلك تحليل الكلمات المتفق على معانيها.

الخطوة السابعة: إعراب المواقع المؤثرة في المعنى، وليست إعراب كل كلمة في النص، من أمثال المواقع المؤثرة في المعنى إن كانت الكلمة منصوبة، فهل هي حال أو استثناء أو تمييز أم من المفاعيل أي مفعول به أو فيه (ظرف زمان أو مكان) أو له أو معه أم معطوف أو صفة أو بدل أو اسم إن أو خبر كان.

وإن كانت الكلمة مرفوعة فهل هي مبتدأ أو خبر أو فاعل أو نائب فاعل أو اسم كان أو خبر إن. كل هذا وغيره يؤثر في المعنى ويبرز جمال النص القرآني.

وعند التفسير باللغة والنظر في الأعراب يجب مراعاة:

١- لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل علي مجرد الاحتمال النحوي أو اللغوي، ولا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به فلا يجوز حمله علي المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم.

٢- ينبغي أن تجتنب التقادير البعيدة والمجازات المعقدة عند تفسير القرآن باللغة وإعرابه.

٣- معرفة تصريف اللفظة وإرجاعها إلى أصلها يعين في بيان المعنى الراجح من الأقوال ورد المرجوح.

٤- لا يجوز تحريف معاني القرآن من أجل المحافظة على قاعدة نحوية فهدم مائة من أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية.

٥- تجتنب الأعاريب المحمولة على اللغات الشاذة لأن القرآن نزل بالأفصح من لغة قريش.

٦- ينبغي تجنب الأعاريب التي هي خلاف الظاهر والمنافية لنظم الكلام.

وقد كثر وقوع أهل البدع في هذا الأمر حيث أنهم حملوا نصوصه ما لا يحتمل وركبوا الصعب من أجل حمل نصوص لقرأن على معان تؤيد باطلهم كما وقع في ذلك أقوام بسبب التعصب المذهب.

الخطوة الثامنة: بيان الوجوه البلاغية في النص والتي تبرر أسرار الأعجاز البياني في القرآن الكريم وقد اوجزه الرماني إلى عشرة فنون بلاغية وعلوم البلاغة ثلاثة: المعاني والبيان والبديع وتصل فنونها إلى حوالي السبعين فنا بلاغيا فعلم المعاني يتضمن ستة فنون كالخير والأنشاء والإطلاق والتقييد والقصر والوصل والفصل والإيجاز والأطناب والمساواة وعلم البيان يتضمن أربعة فنون كالتشبيه والمجاز والاستعارة بأنواعها والكناية بأنواعها وعلم البديع يتضمن أثنين وستين فنا بلاغيا منها المحسنات المعنوية في ثمانية وثلاثين نوعا كالتورية والطباق والإدباج والتعليل والمشاكلة والطي والنشر... إلخ والمحسنات.

اللفظية في أربعة وعشرين نوعاً ؛ كالجناس والترصيع والموازبة والتسميط والتطريز والاقتباس والتضمين والتخلص وحسن الختام.

- الخطوةالتاسعة: تفسير النص أو المعنى العام وذلك بالجمع بين القراءات القرآنية وأسباب النزول وظروف النزول وأحداثه وبيان معاني الكلمات بالاستشهاد بنصوص أخري من القرآن وتوكيدها بمعانيها في السنة النبوية ثم بأقوال الصحابة والتابعين وبالشعر العربي فأن الشعر ديوان العرب.

- الخطوةالعاشرة: الفوائد المستنبطة من النص القرآني المدروس من أحكام عقائدية وفقهية وتربوية والأحكام اللغوية والعلمية.

وذلك بالاستنباط الدقيق من النص في مختلف العلوم والفنون الشرعية واللغوية والتربوية والعلمية.

الفصل الثاني

الدراسة التطبيقية للآيات من سورة البقرة (١ إلى ٣٨)

سورة البقرة

تسميتها وفضلها:

سورة البقرة أطول سورة في القرآن، وهي مدنية استمر نزولها من بداية الهجرة إلى نهاية الوحي، وصفت بأنها فسطاط القرآن وسنامه، وذلك لعظمها، ولما جمع فيها من الأحكام التي لم تذكر في غيرها. قال أبن العربي: (سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر)

وقد كانت عادة العرب أن تسمي بأغلب صفة، أو أغربها في المسمى، فتسمي القصيدة الطويلة بأشهر شيء فيها، وكذلك جرت أسماء سور القرآن، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب حكايتها التي كشفت عن ردئ أخلاق بني إسرائيل، وكذلك ما في قصتها من عجائب ومعجزات، وقد ورد تسميتها بهذا الاسم عنه

صلي الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضي الله عنهم، فقد روي مسلم وغيره عن حذيفة قال: (صليت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ليلة من رمضان فافتتح البقرة، فقلت يصلي بها في ركعة، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلا)

ومما ورد من فضل هذه السورة:

ما رواه مسلم وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: (اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة). قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة.

صفحة رقم ٤٤

وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة).

وروى الترمذيوالنسائي عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثاّ ذا عدد، وقدم عليهم أحدثهم سنا،لحفظه سورة البقرة، وقال له: (اذهب فأنت أميرهم).

وروى مسلم وغيره عن أبيأمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرءوا الزهر أو إن البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما فرقان طير

صوان، يحلجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرءوا البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة).

ومعنى الزهرارين: أي السنيرتان.. سميتا بذلك لنور هما وهدايتهما، وعظم أجرهما، ومعنى الغمامة والغيابة واحد، وهو كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيره، والمراد الثواب السورتين يأتي يوم القيامة كالغمامتين من السحاب. ومعنى البطلة: السحرة أي لا يمكنهم حفظها، أو لا يمكنهم النفوذ والتأثير على قارنها.

أغراض السورة الإجمالية:

جمعت هذه السورة أغراضا متعددة، وموضوعات شتى متنوعة عقائدية، ودعوية، وتشريعية، وأخلاقية، وقصصية وغير ذلك، ومع كثرة هذه الأغراض، وتنوعها، واختلاف موضوعاتها، وتشعبها، وتفرق نزلولها في

أزمان طويلة، مع كل ذلك فالقارئ والسامع لها يجد الألفة والترابط بين آياتها كلها، ويأخذ بعضها بحجز بعض، وكأنها بنيان مرصوص بإحكام ودقة، تتواصل موضوعاتها المختلفة، ويسلم بعضها لبعض في رفق ولطف، فترشد الناس بذلك إلى أنها كلام الخالق، الذي يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ومن هذه الأغراض:

١) التنويه بشأن القرآن، وكونه حقا لا ريب فيه، جامعا لأنواع الهداية في الدنيا والآخرة، ومع ذلك انقسم الناس أمام هدايته ثلاث فرق: مؤمن، وكافر، ومنافق.

٢) أساليب القرآن في الدعوة إلى الإسلام والتوحيد، ومن ذلك: البداية بالدعوة إلى التوحيد بالأدلة المختلفة، وإثبات الرسالة والنبوة، والجنة والنار، وإزالة شبه المشركين، ثم الدعوة غير المباشرة عن طريق عرض قصة آدم عليه السلام، وما حصل له من اغواء، وتوبة الله عليه، وبيان بداية الإنسان وتكريم الله له.

٣) دعوة أهل الكتاب، وخاصة اليهود، وعرض علاقاتهم وأحوالهم مع دعوة الإسلام وأهله في المدينة، وشغل ذلك حيزا كبيرا في السورة زاد على المائة آية، بدأ بتذكير اليهود بنعم الله عليهم، فقد نجاهم من فرعون وعذابه، ومن الغرق وغير ذلك، وهذا من باب الترغيب، ثم انتقل إلى ذكر مساوئهم ومخالفتهم، وقتلهم، للأنبياء وغير ذلك من اعتقادات وتصرفات باطلة، ثم انتقل إلى عرض تصرفاتهم مع الإسلام

وأهله في المدينة، والرد على كفرهم وكذبهم، ومن خلال ذلك عرض قصة سيدنا إبراهيم ليتعظوا به، فهو جدهم.

٤) عرض للتشريعات المتنوعة المطلوبة لإقامة دولة الإسلام في المدينة، بدأ بتقرير وحدة الخالق، ثم تقرير أنه المستحق وحده للأمر والنهي والحكم والتشريع، ثم تفصيل تلك التشريعات بعد هذا التمهيد ومنها: أحكام القصاص، والوصية، والصيام، والاعتكاف، والحج،

والجهاد، ونظام الأسرة من أحكام النكاح والطلاق، والعدة، والرضاع، والنفقات، والأيمان وغير ذلك، ومن خلال ذلك تعرض لبعض القصص القصيرة، والمواقف الهادفة التي ترسخ مبدأ التسليم لله، وأنه ينصر أولياءه، ثم عرض نظام المعاملات المادية، من الإنفاق والصدقة، والربا، والكتابة، والديون، والشهود والرهن وغير ذلك.

ثم ختمت السورة بأعظم آيتين، وهما خبر ودعاء تضمن خصائص الشريعة، وبيان سماحتها ويسرها، وإشارة إلى سمات أهلها، المؤمنين بكل الرسل والكتب، والمسلمين لحكم ربهم، المداومين على الاستغفار والدعاء، ولذلك قال عنهما صلي الله عليه وسلم: (من قرأ آخر آيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه)، أو كما قال صلي الله عليه وسلم.

من أوصاف القرآن

قال تعالى: (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)

المعنى الإجمالي:

الله سبحانه بتعريف كتابه للناس فهو معجز مع أنه مؤلف من نفس حروفكم وألفاظكم، وأنه جمع أوصاف الكمال، ومبرأ من التهم والعيب، وهو الهدي نفسه لمن أراد الهداية.

أجملت الفاتحة مقاصد القرآن الكلية، والبقرة فصلت هذه المقاصد.

أقول العلماء في معنى (الم) وغيرها من الحروف المقطعة:

الأول:

أنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهذا القول منسوب إلى أبي بكر رضي الله عنه، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم وفريق من الصحابة والتابعين، واختاره أبو حاتم بن حبان والقرطبي والسيوطي وغيرهم ودليلهم على ذلك:

١) لم ينقل لهذه الحروف تفسير عن الشرع، ولم يستخدم العرب ذلك في لغتهم وتعبيرهم والقرآن نزل وفق لغتهم، ولذلك اختلف في بيان معناها المفسرون.

- نص القرآن باشتماله على المحكم والمتشابه في قوله تعالى: (منه آيات محكمات وآخر متشابهات)، والراجح ان المتشابه لا يعلمه إلا الله سبحانه. والحروف المقطعة من هذا القبيل.

الثاني:

أنها معلومة المعنى، ويجب على العلماء الاجتهاد في بيان معناها لأن القرآن أنزل للفهم والتدبر والعمل بأحكامه، وقد أمرنا الله سبحانه بتدبر آياته

فقال: (كتاب انزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وقد اختلفوا في معنى هذه الحروف على اقوال:

١- أن هذه الحروف رموز يشير كل منها إلى اسم من اسماء الله تعالى وحذفت باقي حروفه مثل: (كهيعص)، فالكاف ترمز إلى: الملك، والهاء الى: الله، والياء والعين إلى العزيز، والصاد الى: المصور. و(طه) ذي الطول، و(ق): قادر وقاهر، و(ن): نور وناصر... وهكذا.

وقيل: هذه الحروف رمز إلى اسم الله الاعظم ولكن لا نعلم كيف نؤلفه منها.

واستدل القائلون بذلك بأثار عن الصحابة والتابعين، كما أن العرب استعملوا الرمز بالحرف في كلامهم ومن ذلك قول الشاعر:

آآ قلنا لها قفى لنا.آ

فقالت قاف.آآ

أرادت: أقف. ومثله قول الشاعر:

آآبالخير خيرات وإن شرأفا.آ

ولا أريد الشر إلا أن تا.آآ

أي: وإن شرا فشر ولا أريد الشر إلا أن تشاء.

ورد هذا القول بأنه لم ينقل عنه صلى اللَّه عليه وسلم وأن العرب لم تعرف في أساليبها اختصار الكلمات في الحروف، وأما ما استشهد به على ذلك فإنه ضرورة شعر، ولأن السياق يدل على المحذوف بدون لبس، وليس ذلك في الحروف المقطعة أوائل السور، فلا يوجد في السياق ما يدل على كونها رموز واختصار من كلمات معينه. كمان أن تفسيرها بهذه المعاني التي لا دليل عليها يكون من قبيل التأويل الباطن المذموم المنحرف، الذي لا يستند إلى اللغة وقوانين الشرع، ويفسر كلام اللّه حسب الهوى، بغرض الإلحاد في كلام اللّه تعالى، وإفساد الشرع.

٢- وقيل: أنها حروف تدل على القسم أقسم بها اللّه تعالى في أوائل السور كما أقسم بالنجم والطور والتين وغيرها.

رد ذلك بأن أدوات القسم معروفة في لغة العرب مثل: التاء، والواو، والباء، ولم تعرف العرب القسم بغير ذلك من حروف الهجاء، والقرآن لسان العرب، كما أنه لا يستقيم معناها في السياق إذا قدرنا أنها قسم.

٣- أنها أسماء للسور،. فتكون للسورة أكثر من اسم مثل: آلم البقرة، ن القلم، طس النمل وهكذا، وأيد ذلك ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة: (أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن يقرأ في صلاة الصبح ألم السجدة، وهل أتى على الإنسان)

وورد ذلك أيضا بأن اسم السورة يوضع دائما قبل البسملة لا بعدها ولا بعد آية من السور كما أن الصحابة رضي الله عنهم كان لا يثبتون في القرآن أسماء السور بالإضافة إلى أن وظيفة الاسم التعريف والتعيين للمسمى ولكننا نجد أن (ألم) مثلا في أول أكثر من سورة بالإضافة إلى السور الكثيرة الأخرى التي خلت من هذه الحروف فما الحكمة في ذلك؟ ولأنها لو كانت أسماء السور لتقل ذلك ولأشتهر بين الناس.

وقريب من هذا الرأي قولهم بأن هذه الحروف أسماء للقرآن وهذا أبعد من الرأي السابق ولا يستقيم لا معنى ولا نقلا.

٤- وقيل: ان لها معنى حسابي يسمى (أبي جاد) أو حساب الجمل وهو عبارة عن إعطاء كل حرف من الحروف الهجائية قيمة عددية مثل: أ

=١، ب=٢، ج=3... وهكذا ثم يستدلون بجمع هذه الأداة للدلالة على عمر الأمة أو هزيمة أو نصر وغير ذلك واستدلوا على ذلك بآثار.

وورد ذلك بأن الحديث الوارد في ذلك ضعيف فلم ينقل تفسير القرآن بالحساب عن أحد والعرب لم تعرف هذا النوع من الدلالة بالأعداد وأنه قبيل السحر والأوهام.

قال ابن حجر: (وهذا باطل لا يعتمد عليه فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه الزجر عن عدد (أبي جاد) والإشارة إلى أم ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فإنه لا أصل له في الشريعة...)٥- وقيل: أن هذه الحروف لا تدل إلا على مسمياتها كما هو معروف فالألف اسم للحرف الثاني في قولنا: (صار). ولذلك فهذه الحروف لامعنى لها في ذاتها لا مفردة مثل: ن - ص - ق، والمركبة مثل: (الم- طس...) ولكن ورودها في أول السور لحكم متنوعة منها:

- الفصل بين السور ورد تلك بأن الفصل حاصل بدونها فالتسمية موجودة في أول كل سورة، وكذلك خلت سور كثيرة من ذلك.

- وقيل: لإثارة انتباه المشركين حتى يسمعوا القرآن فإنهم لما تواصلوا بالإعراض عنه وعدم سماعه، جاء بهذه الحروف المقطعة التي لم يألفوها في أول السورة حتى تألفت انتباههم ويتشوقوا إلى معرفة معناها فيهجم القرآن الواضح المعنى بعد ذلك على أسماعهم وقلوبهم.

ورد ذلك بإن أدوات التنبيه عند العرب معلومة مثل: ألا، وأما وغيرها، فليست هذه الحروف من قبيل ذلك، كما أنها وردت في أول السور

المدنية التي كانت تخاطب المؤمنين لا الكفار، بالإضافة إلى أن أغلب السور المكية خالية من ذلك.

- وقيل: وردت هذه الحروف في أول السورة للدلالة على إعجاز القرآن. فإن الله يريد أن يقول لهم أن القرآن مؤلف من مثل حروفكم التي تتحدثون بها وهى مادة نظامكم وشعركم، فإذا عجزتم عن معارضته والإتيان حتى ولو بأية منه، فيلزمكم الإيمان والتسليم بكونه كلام رب العالمين.

ولعل هذا الرأي هو الصواب فالعقل لا يمنع من قبوله وكذلك المعنى، ولا يوجد ما يرده، كما أن السياق يزيده، فإن إثبات إعجاز القرآن أصل من أصول الشرع، استدل له الله سبحانه بأدلة وأساليب متنوعة في القرآن، ومن ذلك هذا الأسلوب فإنه ذكر بعض حروف الهجاء التي ترمز إلى أخواتها ليبين أنه ألف هذا الكلام المعجز من نفس مادة كلامهم، فالألفاظ والحروف والأسلوب واحد، ولكن شتان بين شعرهم ونثرهم وبين كلام الحق سبحانه.

قال ابن كثير رحمه الله: (ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة)، ولهذا يقول تعالى:

- (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) (البقرة)

- الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق (آل عمران)

- المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه (الأعراف)

- الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور (إبراهيم)

- حم تنزيل من الرحمن الرحيم (فصلت)

وأما موقف هذه الحروف من الإعراب فإما:

- أنها لا تعرب وتنطق ساكنة الآخر لأنها كالأصوات.

صفحة رقم ٥٣

- أو تعرب إذا اخبرت عنها لو عطفتها ولها ثلاثة اوجه:

- خبر لمبتدأ التقدير: (هذه الم).

قال تعالى (ذلك الكتاب) إشارة إلى القران الكريم الموصوف بغاية الكمال. المتضمن لكل شيء. فلا شبيه له ولا نظير

وذلك اسم إشارة يحتمل معنيان لأنه بمعنى هذا الكتاب. والمشار إليه (إلى صراط مستقيم) الذي طلبوه في الفاتحة. فيكون هذا القرآن هو ذلك الصراط المستقيم. والعرب تستخدم (هذا) مكان ذلك) وقد ورد ذلك في القرآن ومنه (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) وتكون الحكمة في استخدام ذلك مع انه قريب أما لان كل ما مضي سبق فهو من الحكم البعيد أو لأنه بعيد بما فيه من اسرار وحقائق وأن كانت صورة قريبة.

أو تكون ذلك على معناها ودلالتها البعيدة. ويكون المشار اليه ما سبق من قرآن منزل في مكة ومنهم من قال المشار إليه الكتب السماويةالسابقةوهذا بعيد عن السياق المقصود

و(الكتاب) المقصود به هنا القرآن، كقوله تعالى: (كتاب انزلناه إليك) وهو مشتق من كتبت الشيء أي جمعته، ومن ذلك سميت الكتيبة لاجتماعها، وسمي القرآن بتلك لأنه اجتمع فيه كل العلوم والأسرار. وقد يأتي الكتاب بمعنى الفرض كقوله تعالى: (كتب عليكم القصاص في القتلى)، ولذلك سمي الله القرآن كتابا لأنه ألزم به المكلفين. وقد يأتي الكتاب بمعنى البرهان، وبمعنى الأجل، وبمعنى المكاتبة.

(لا ريب فيه) وهي الصفة الثانية للقرآن أنه حق مطلق لا يحوم حوله شك، ولا يرتاب في كونه من عند الله، ولا في كونه معجزا للثقلين ما دامت الأرض والسماء. والريب بمعنى الشك والتهمة، و(لا) هي النافية للجنس، نفت عن القرآن أي نوع من انواع الشك، فإنه بلغ من الكمال والإعجاز وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يشك فيه، فالعرب مع بلوغهم الغاية في الفصاحة عجزوا عن معارضته بآية.

وقدم الريب عن الظرف لأنه هو المقصود بالنفي. وقد تكون هذه الجملة خبرية لنفي الشك حوله، وقد تكون بمعنى الإنشاء لنفي التهمة، أي لا تشكوا في صدقه.

(هدي للمتقين) وهذه هي الصفة الثالثة للقران، والهدى بمعنى الإرشاد والدلالة إلى الحق كقوله تعالى:(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى)، وقوله تعالى: (إنك لتهدي إلى صراط مستقيم) ويأتي الهدى بمعنى ما يقر في القلب من الإيمان والتوفيق إلى اليقين،

وهذا لا يقدر عليها إلا الله، ومنه قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) وقوله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وغيرها. وجعل القرآن هنا هداية للمتقين فقط مع إنه هداية وإرشاد للجميع.

والمتقون من الوقاية وهي الصيانة. قال الشاعر معبراً عن جمال المرأة الشكلي، وأجمل من ذلك إخفاء جمالها عن الرجال بالعفاف والستر

فألفت قناعاً دونه الشمس وقالت... بأحسن موصولين كف ومعصم

فهم الذين يجتنبون ما حرم الله ويعملون بما أمر ليستوجبوا رحمة الله ويجتنبوا ناره وغضبه، فالتقوى جماع الخير، وتأتي التقوى بمعنى الخشية والخوف كقوله تعالى(يا أيها الناس اتقوا ربكم) وقد تأتي بمعنى الإيمان، والتوبة، والطاعة، وترك المعصية والإخلاص (مشار في الهامش انظر التفسير الكبير ٤/٢٤)

وللوقف في الآية موضعين

-على قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) ثم نقرأ (هدى للمتقين)

-أو (ذلك الكتاب لا ريب) ثم نقرأ (فيه هدى للمتقين)

والأول للجمهور، والثاني لعاصم والأول أبلغ، لأن الهدى سيكون صفة القرآن كله بخلاف لو قلنا فيه هدى.

صفات المؤمنين

قوله تعالى: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالأخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون..) الآيات ٣ إلى ٥.

المعنى الإجمالي:

حدد الله سبحانه أوصاف المتقين الذين خصهم بالانتفاع بهداية القرآن

بأنهم الجامعون لهذه الصفات: الإيمان بالغيوب التي جاءت بالقرآن، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله من الزكاة وغيرها، والإيمان بالقرآن وبما سبقه من رسالات سماوية، والإيقان بالأخرة وما فيها من أحوال، فمن اتصف بذلك فهو على نور واستقامة جزاؤهم الفوز بسعادة الدارين.

تحليل الآيات:

- قوله تعالى: (الذين يؤمنون بالغيب) ما وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها؟ هذا الارتباط ظاهر لأن الله سبحانه خص المتقين بهداية القرآن، فذكر صفاتهم إجمالا ثم فصل أوصالهم بهذه الآية، هذا من ناحية المعنى، والارتباط ظاهر أيضا من ناحية الإعراب: فإعراب (الذين) إما:

- اسم موصول في محل جر صفة للمتقين.

- أو في محل نصب مدحاً لهم والتقدير:أعني (الذين يؤمنون)، أو غي محل رفع خبر تقديره: (هم الذين) وبناء على هذا الارتباط الوثيق يكون الوقف في الآية السابقة حسناً.

- وقيل: أن هذه الآية خبر جديد مستأنف غير مرتبط بالآية السابقة، كأن الله سبحانه وتعالى ذكر أوصاف المنتفعين بالقرآن منها: (المتقون، ثم المؤمنون بالغيب)، وإعراب (الذين) بناء على ذلك اسم مبتدأ في محل رفع وخبره: (أولئك على هدي من ربهم). ويكون الوقف في الآية السابقة تاماً بناء على هذا التوجيه.

والإيمان في اللغة: معناه التصديق القلبي فقط ودليله قول إخوة يوسف عليه السلام: (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين). أي وما أنت بمصدق لقولنا. وكذلك إذا عطف الإيمان على العمل الصالح فالمقصود به التصديق فقط كقوله تعالى: (إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً).

وأما الإيمان في الشرع: فهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بأركان الإسلام، وهذا هو مذهب جمهور أهل السنة، فالإيمان يعني أن نصدق بالله سبحانه وبشرعه، وأن نصرح بالشهادتين لساناً، وأن نعمل بأركان الإسلام، ونجتنب نواهيه.

والغيب في اللغة: المكان المنخفض الذي يستتر فيه لنزوله عما حوله، وأخذ من هذا المعنى أن كل ما غاب واستتر عن الإنسان يسمى غيباً. وللسلف

رحمهم الله عبارات متعددة في معنى الغيب تتفق كلها لأنها راجعة إلى أصل واحد فقيل: هو الوحي، وقيل: القرآن.

وقيل: الجنة والنار، وقيل: القدر وقيل: الرسول صلى الله عليه وسلم لمن لم يرى... وكل ذلك صحيح قد غاب عنا فنحن نؤمن به لخبر الله سبحانه بذلك.

- (ويقيمون الصلاة) الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء.

وفي الشرع معناها: أقوال وأفعال مخصوصة مبتدأه بالتكبير مختتمة بالتسليم. والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي أن الصلاة مبنية على الخشوع والدعاء والسؤال والتذلل لله سبحانه وتعالى، وكذلك حاله داعي لله سبحانه، وقيل: مشتقة من صليت العود أي لينته، وقيل: من تحريك الصلويين وهما عرقان في مؤخرة الظهر، وقيل: من الملازمة مثل قوله: (تصلى نارا حامية) والاول هو الظاهر.

ومعنى إقامة الصلاة أمور: تمام فعلها من ناحية الأركان والشروط والسنن والوضوء وقيل: المحافظة على مواقيتها وأحوالها، وقيل: المداومة عليها وكل ذلك مطلوب لذلك عبر الله سبحانه عنها بقوله (أقام الصلاة) ولم يقل: المصلين فقط.

والصلاة المقصود بها هنا إما المفروضة لأن الآية في معرض المدح فيقع على أعظم الأمور، ولأن الفلاح يترتب على أداء الفرائض. وإما يقصد بها المفروضة والنافلة وهذا أولى للعموم، ولأن اتباع الفرض بالنفلمن علامات محبه لله تعالى.

– قوله تعالى: (ومما رزقناهم ينفقون)، أصل الإنفاق: إخراج المال من اليد، ومنه نقف المبيع نفاقا: إذا كثر المشترون له، ونفقت الدابة أي خرجت روحها، ومنه النفق الذي يخرج منه المار أسفل الأرض.

والإنفاق هنا يشمل الواجب كالزكاة المفروضة، والنفقة على من تلزمه نفقته كالولد والزوجة، وكذلك يشمل المندوب من سائر الصدقات في الوجوه المختلفة، وقيل: المقصود به هنا الواجب فقط لأنه اقترن بالصلاة الواجبة ولأن الفلاح يترتب على إتمام الواجب، وقيل: المقصود هنا عموم النفقة وهو الصواب لأن (ما) اسم موصول للعموم، ولأنه في معرض المدح فيشمل كل ذلك.

وقدم الرزق هنا وهو المفعول لأنه الأهم، ونسب الرزق إلى نفسه سبحانه ليدل على أنه ملكه لا مالهم فلماذا يبخلون؟ وكذلك أدخل (من) (مما) التي تدل على التبغيض كفا لهم عن التبذير والإسراف المنهي عنه وعبر عنه بالفعل المضارع الدال على الحدوث والتجدد (مشار في الهامش إلى انظر الكشاف ١/١٣٢) وكل هذا من مظاهر الإعجاز في التعبير.

– قوله تعالى: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك).

والصفة الرابعة للمتقين هم الذين يؤمنون بالقرآن النازل من عند الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك يؤمنون بالرسالات السابقة على سبيل الإجمال وليس التفصيل. وهل الموصوفون بهذه

الآية هم نفس الموصوفون بالآية السابقة أم فريق آخر خلافهم؟ ورد في ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: الموصوفون بالآيتين واحد وهم كل المؤمنين سواء من أهل الكتاب أو العرب.

الثاني: هم واحد أيضا ولكن المقصود بهم أهل الكتاب فقط دون العرب.

الثالث: أن الآية الأولى خاصة بالمؤمنين من العرب، والثانية خاصة بأهل الكتاب.

والصواب القول الأول لأن الآيات عمت كل المؤمنين ولم تخصص فريقا منهم، ولأن المؤمن لابد أن يتصف بكل هذه الصفات، فلا تصح صفة دون الأخرى، فلا يصح الإيمان بالوحي والكتب السابقة دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكذلك العكس، وما يدل على اشتراط جميع هذه الصفات لكل مؤمن قوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله...). (مشار في الهامش إلى انظر ابن كثير ١/٤٤)

وعبر بالماضي في قوله تعالى: (يؤمنون بما أنزل إليك) مع أنه مازال بعض القرآن لم ينزل في هذا الوقت، لأن أكثره قد نزل في مكة، أو لأن الإيمان بما تقدم يقتضي الإيمان بما سينزل بعد ذلك. ولم يكرر حرف الجر في: (ما أنزل من قبلك) ليدل على أن الإيمان واحد بالقرآن وبالرسالات السابقة فلا فرق، فلو كرر الجار لأوهم أنهما اثنان.

صفحة رقم ٦٢

ـ قوله تعالى: (وبالآخرة هم يوقنون)، والأخرة هي يوم القيامة وما فيه من أحوال، وسميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا، ولأنها نهاية الحياة، والدنيا سميت بذلك لأنها أدني وأقرب من الآخرة.

واليقين هو أعلى مراتب العلم والتصديق، ولذلك خص الآخرة بقوله (يوقنون) وأما الوحي فقال: (يؤمنون)، وذلك لأن أمر الآخرة أعجب للإيمان بما يحدث فيها من غرائب كأنواع الثواب والعقاب، والميزان والجنة والنار ورؤية الله تعالى وغير ذلك، ولأن الوحي مشاهد ومسموع بخلاف أمر الآخرة فهو كله غيب صرف، ولذلك أكد عليه بأمور:

ـ خصه بلفظ اليقين.

ـ قدم الآخرة على الفعل للاهتمام والاعتناء بها.

ـ أكده كذلك بلفظ(هم).

ـ عبر عنه بالجملة الاسمية للتأكيد والدلالة على الثبات والدوام بخلاف الفعلية.

وبعد هذا النظم البليغ والثرى في معانيه ومراميهجاءت الصورة الشكلية لهفي غاية التناسق الصوتي: ينفقون، يوقنون، المفلحون... الخ.

والصفات الخمسة السابقة: الإيمان بالغيب، إقامة الصلاة، الاتفاق، الإيمان بالوحى الإلهي واليقين بالآخرةهي التفصيل لخصال المتقين الذين خصهم الله بالاهتداء بالقرآن. ومعلوم أن صفات المتقين تشمل كل

أعمال الطاعة واجتناب المعاصي، ولكن الله سبحانه خص هذه الأعمال الخمسة لشرفها

ولأنها تمثل الأسس وأصول الإيمان الدالة على غيرها، لأن الإيمان إما عمل القلب وهو الإيمان بالغيب، أو عمل بالجوارح وهي الطاعات البدنية، وأشار إليها بالصلاة، أو العبادة المالية وأشار إليها بالإنفاق، وكذلك لأن أصول الإيمان تعظيم الرب سبحانه ويكون بالإيمان به والصلاة والإحسان إلى الخلق ويكون بالنفقة

قوله تعالى: (أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هذان الخبران هما نتيجة وأثر للأوصاف السابقة، فإنه لما حاز المتقون الصفات السابقة كان جزاؤهم الهدي في الدنيا والفوز في الآخرة، وأكد الله سبحانه جزاؤهم هذا بأمور عدة:

- كرر اسم الاشارة (أولئك) ليفيد اختصاصهم دون غيرهم بأمرين هما الهداية والفوز، واستخدم حرف العطف في ربط الجملتين كذلك لكونهم خيرين مختلفين في المعنى بخلاف قوله تعالى: (أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ) فإن الخبرين هنا بمعنى واحد فلم يلزم لعطف

- عبر بحرف الجر (على هدى) لبيان تمكنهم وثباتهم على الهداية كأنه طريق أو ركوبه لهم.

- نكر لفظ (هدى) ليفيد انهم على حال من الهداية والتوفيق بلغ الغاية في الكمال فلا يبلغ كنهه.

– فصل بالضمير (هم) ليفيد الحصر كأنهم هم فقط الدين حازوا الفلاح دون غيرهم فإن قولك: الانسان ضاحك، لا يوازي قولك: الانسان هو الضاحك، لأنك قصرت الضحك عليه دون غيره من الكائنات.

والله سبحانه نبه على اختصاص المتقين الموصوفين بتلك الصفات بنيل ما لا يناله احد، وعبر عن ذلك بطرق شتى واساليب متنوعة كل ذلك ليحث الإنسان على التحلي واكتساب هذه الخصال العالية ليفوز بمالهم ويحظى بفضلهم،فاللهم فهمنا اسرار كتابك والعمل به آمين.

صفات الكفار

قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)) (البقرة: ٦-٧)

المعنى الإجمالي وارتباط الآيات بما سبق:

بعد أن عرض الله سبحانه سمات المتقين المنتفعين بالقرآن وبين مالهم انتقل الوحي عارضا حال الأشقياء الذين اصروا على الباطل والتكذيب بالحق مع تجلى براهينه، لذلك آيس الله رسوله من إيمانهم فلن يؤمنوا أبدا لأن الله سبحانه سد منافع الحق عنهم، فطبع على قلوبهم وأسماعهم، وغطى على ابصارهم وبصائرهم فكيف يعقلون البرهان وينتفعون بالدليل، فالإنذار في حقهم لا جدوى منه بعد ان قضي الله عليهم بالكفر والعذاب العظيم بسبب ميلهم وإعراضهم عن الحق.

تحليل الآيات:

- قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، الكفر في اللغة: التغطية، وكفرت الشيء: أي غطيته، وسمي الليل كافرا لأن ظلمته تغطي الكون، ومنه قول لبيد: (في ليلة كفر النجوم غمامها)، وسمىالكافر كافرا لأنه يغطي الحق ولا يقبله.

والكفر في الاصطلاح: هو عدم تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم في شيء من الدين الذي جاء به المعلوم بالضرورة والتواتر، كمن أنكر وجود الله سبحانه، أو وجوب الصلاة وغيرها من الأركان، أو أنكر حرمة الخمر والزنا..

سواء: اسم بمعنى استواء أو مستو وهو مصدر من الفعل (استوى).

ومعنى الكلام: مستوى هذان الأمران عندي، أي إنذارك لهم وعدهم متساويان لا فائدة من دعوتهم لأنهملن يؤمنوا أبدا.

إعراب الآية:

جملة: (سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم):

(سواء) خبر مقدم، (أنذرتهم...) مبتدأ مؤخر، والجملة خبر (لأن) وجملة: (لا يؤمنون) توكيد للخبر، أو تكون جملة: (لا يؤمنون) هي خبر (لأن)، والمبتدأ والخبر جملة معترضة مؤكد.

القراءات في: (أنذرتهم):

ـ تحقيق الهمزتين وبه قرأ الكوفيون.

ـ تحقيق الأولى وتسهيل الثانية للحرمين، وكذلك أبو عمرو، وهشام إلا أن بعضهم يدخل ألفا بينهما، وبعضهم لا يدخل.

ـ أو تحذف الأولى.

ـ أو تحذف الأولى وتلقى حركتها على الساكن قبلها مثل: (قد أفلح).

- أو تحقيق الأولى وإبدال الثانية ألفاً، وقد أنكر الزمخشري هذه القراءة بسبب التقاء الساكنين وهي قراءة صحيحة.

وقوله تعالى: (إن الذين كفروا... لا يؤمنون) خبر عام ظاهره أن الكفار لا يؤمنون أبدا، ومعلوم أن كثير من الكفار آمنوا ولذلك هذا الخبر العلم

إما أنه مخصوص مقيد بطائفة معينة من الكفار الذين لم يؤمنوا كأبي لهب وأبي جهل وغيرهم، أو قادة الأحزاب الذين ماتوا على الكفر.

أو تكون الآية مقيدة بمن كتب الله عليه الشقاء والكفر في علمه سبحانه فهذا لا هادى له أبدا، ويكون في ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتخفيف من حزنه وحسرته بسبب عدم إيمانهم لأن الله عرفه بأن منهم طائفة لن تؤمن أبداً. ويدل هذا على أن الإيمان من نعم الله وعطائه وتوفيقه للمؤمن، وأن القلوب بيدي الله سبحانه يقلبها كيف يشاء فنسأل الله سبحانه من فضله أن يثبتنا على الإيمان، وحب طاعته حتى نلقاه.

ثم عرض الله سبحانه سبب اليأس من إيمانهم بأنه طبع على قلوبهم وغطى أبصارهم عن الحق فقال تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم).

ختم: بمعنى طبع، وختم الإناء والظرف، أي ضرب عليه بالخاتم كتما له وتغطية حتى لا يطلع على ما بداخله، والغشاوة: أيضاً الغطاء والستر. وللطبع على القلب والسمع معنيان:

الأول: مجازى شبه القلب لكونه لا يعي آيات الله بالإناء المحكم إغلاقه بالختم على ما فيه فلا يمكن دخولشيء إليه، وكذلك قلب الكافر وسمعه.

الثاني: أن الختم حقيقي فالقلب ينضم وينكمش فعلا، أو يسود كله فيحول

السواد بينه وبين الاستبصار والاتعاظ فلا يعي ما ينفعه ويضره.

والأول قول المعتزلة لأن من اصولهم ان الله سبحانه لا يفعل القبيحوختمه على قلوب الكفار ظاهره أنه صرفهمعن الإيمان والجتهم إلى الكفر وهذا قبيح عندهم يتنزه الله عن فعله وكذلك فإن هذا الفعل يتعارض مع عدل الله سبحانه، فكيف يجبرهم على الكفر ويختم على قلوبهم ثم يحاسبهم على ذلك؟ ولذلك اولوا هذا الظاهر بأمرمنها:

ما سبق وهو كون الآية مجاز فهي تشبيهلإعراضهم عن الحق وتكبرهم عليه بالإناء المغلق المختوم على فيه، فهو تمثيل وليس حقيقة أن الشيطان هو الذي ختم على قلوبهم، ولكن لما كان الله هو الذي اقدره على ذلك اسند الفعل إلى نفسه سبحانه.

او أن هذا الكلام حكاية لقول الكفار عن أنفسهم كذبا لا حكايةعن فعل الله سبحانه كقوله تعالى: (وقالوا قلوبنا في أكنة)

أو أن الختم عبارة عن سمة وعلامة يعرف بها الكافر لا أن الله ختم فعل.

والراجحالقول الثاني فهو ختم حقيقي من فعل الله سبحانه بالكفار ومن الأدلة على ذلك:

١- ظاهر الآية فإن الله سبحانه أخبر بأنه ختم وغطى على قلوبهم وحال بينهم وبين الهداية فلن يعوا الحق ولن يتبعوه ابداً، فكيف يقال

بعد ذلك بأن هذا فعلهم وأن الله سبحانه لم يختم على قلوبهم وهو خلاف نص الآية.

٢- وما يؤكد أن ذلك ختم حقيقي على القلب ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تغلق قلبه فذلك (الران) الذي قال جل ثناؤه: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون).

فالرسول صلى الله عليه وسلم بيّن أن القلب يسود ويغلق بتتابع الذنوب حتى يغطى فلا يعي حقا، فإذا تاب واستغفر أبيّض القلب وانكشف غطاؤه.

٣- وأما قول المعتزلة بأن ختم الله سبحانه على قلوبهم يتنافى مع عدله فغير سليم، لأن الله سبحانه فعل ذلك بهم نظير إصرارهم على الكفر والإعراض عن الحق، كقوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) وكقوله تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وغيرها من الآيات.

والوقف الصحيح ف الآية على قوله تعالى: (على سمعهم). ثم يبدأ جمله جديده بقوله تعالى: (وعلى أبصارهم غشاوة) والدليل على صحة هذا الوقف أمور:

اتفاق القراء على هذا الوقف، وأما الوصل فيعد من القراءاتالشاذة لم يجعل الله سبحانه الختم للعيون في القرآن، فالختم خاص بالقلوب

والأسماع، وما يؤكد ذلك قوله تعالى: (ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة). فلم يدخل البصر في معنى الختم.

فالقراءة الصحيحة بضم غشاوةعلى أنها مبتدأ مؤخر، و(على أبصارهم): خبر مقدم. وأما نصب غشاوة فبتقدير فعل: (وجعل على أبصارهم غشاوة)، وهذا وان كان صحيحا لغة فلا يقرأ به لأنه لم يرد ضمن القراءات المنقولة.

وكرر حرف الجر: (على سمعهم) للتوكيد لأنه جعل السمع ختما جديدا غير القلوب فيدل على تمكنه، وجعل الجملة الأولى فعلية لتدل على بداية الختم والطبع وتجدده، وجعل الثانية اسمية (وعلى أبصارهم غشاوة) لتدل على ثبوت الطبع والختم ودوامه.

قوله: (وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم).

البصر: نور العين وهو ما يبصر به الرائي ويدرك المرئيات. والبصيرة: نور القلب وهو ما بهيستبصر ويتأمل، وهما جوهران لطيفان من صنعالله سبحانه لإبصار الإنسان واستبصاره.

والغشاوة: هيالغطاء على البصيرة، ونكر اللفظ ليدل على أنه نوع من الأغطية غير مألوف وهو التعامي والتجاهل لآيات الله. وكذلك نكر لفظ (عذاب) ليدل على أن العذاب المعد لهم عظيم لا يعلم كنهه وعظمته إلا الله سبحانه.

صفات المنافقين

قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أو كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠))

المعنى الإجمالي وعلاقة الآيات بما قبلها: -

بدأت السورة الكريمة بالكلام عن هداية القرآن ثم قسمت الناس في موقفهم منه إلى ثلاث فرق: الأول فريق المؤمنين الذين أمنوا بالله ظاهرا وباطنا.

والثاني: الكفار الذين كفروا ظاهرا وباطنا، والثالث المنافقين الذين آمنوا ظاهرا وكفروا باطنا، وأجمل الله سبحانه الكلام عن المؤمنين والكفار إثم فصل في عرض احوال المنافقين تنبيها لخطرهم على الدين والمؤمنين، فأصهب الله سبحانه في كشف أحوالهم ومن وذلك:

اتصافهم بالكذب والخداع الناتج من جبنهم وضعفهم، فهم آمنوا لساناً فقط خداعاً للمسلمين حتى يكفوا عن قتلهم وأسرهم، وكذلك حفظاً لأموالهم وطمعاً في مقاسمة المؤمنين في الغنائم.

مرض القلوب والعقول، فالحسد والغل والنفاقأمراض أكلت قلوبهم، وزادهم الله سبحانه وتعالى من ذلك مع ما أعد لهم من العذاب الأليم نظير إصرارهم على النفاق والباطل.

ومن صفاتهم الاستهزاء بالمؤمنين والدين، فإنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والطاعة، وإذا انفردوا بالكفار والمنافقين مثلهم قالوا لهم إنا معكم،إنما إظهارنا الإيمان من قبيل الضحك والسخرية بالمؤمنين، لذلك كان جزاؤهم استهزاء الله سبحانه وتعالى بهم في الدنيا والآخرة لأنهم باعوا الإيمان في مقابل الكفر فخسروا الدارين.

ولم يكتف الله سبحانه بعرض صفاتهم بالأسلوب الخبريفأضاف إلى ذلك أسلوب آخر بضرب الأمثال لهم زيادة في كشف أمرهم وفضحاً لأحوالهم الفاسدة فذكر لقصتهم مثلين:

الأول: ناري شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله انتفع بهم، ثم طفئت وصارت في ظلام دامس، وهو مع ذلك أصم أبكم أعمى فكيف يخرج من الظلمة؟

الثاني: مائي فمثل المنافقين في تحيرهم وترددهم بين الإيمان والكفر بقوم أصابهم المطر النافع ولكن أجتمع معه الظلام الدامس وشدة الرعد والبرق والصواعق، فكذلك المنافقين معهم الإيمان النافع ومعهم أيضا الكفر والشك والضلال، مع ما ينتظرهم من مصائب في الدنيا والآخرة.

تحليل الآيات:

قوله تعالى:(ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين).

هذه أول صفة المنافقين الكذب والخداع باعترافهم بالإيمان قولا مع إنهم ما زالوا على كفرهم وجحدهم خداعا للمؤمنين ليكفوا عن حربهم وينالوا إحسانهم ومغانمهم ويعرفوا أسرارهم.

(ومن الناس)الواو للعطف، فهي من باب عطف فكرة على أخرى مرتبطة بها، وليس عطف الجمل فعطف هنا أحوال المنافقين على الكفار.

(ومن) للتبعيض، (الناس) اللام للعهد أو الجنس، فجعل المنافقين نوعا من جنس الكفار، و(الناس) لفظ مشتق من (ناس ينوس)، أي تحرك، وأما من (نسي ينسى)، ولذلك سمي إنسانا لأن آدم عليه السلام أول ناس، وإما من (أنس) من الأنس لأنه آنس بحواء لما خلقت بجواره، أو لأنه آنس بربه، وهؤلاء الناس هم المنافقون، ثم ذكر سبحانه كذبهم وخداعهم وهي أول صفاتهم فأشار في قولهم:

(من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

(من) إما أن تكون نكرة موصوفة، أي من الناس من يقولون كذا وكذا، وإما تكون موصولة بمعنى الذي (ومن الناس الذين يقولون)، عبروا عن إيمانهم بقولهم:(آمنا بالله واليوم الآخر) فذكروا أهم ركنين في الإيمان فيندرج تحتها كل أصول الإيمان، وذلك زيادة في إبهام المؤمنين بأنهم حازوا الإيمان الكامل وأحاطوا به من جميع جوانبه وهذا في الحقيقة خداع وكذب

فقلوبهم فارغة من كل معاني الإيمان. وكرر حرف الجر (بالله وباليوم الأخر) زيادة في التأكيد وأصالة إيمانهم مع إدراكهم لمعنى كل ركن على حده.

ومن الإعجاز في تعبير القرآن أيضا أنه سبحانه عبر عن ادعائهم للإيمان بالجملة الفعلية: (أمنا بالله)، الدالة على الماضي وعدم الثبات، ونفى عنهم الإيمان بالجملة الاسمية: (وما هم بمؤمنين) وذلك مبالغة

في نفي إيمانهم، أي أنهم ليسوا أهلا للإيمان والاستقامة أصلا، فكيف يصح وصفهم بأنهم آمنوا!،

وكذلك في نفيه للإيمان أطلق ولم يقيد ليدل على أنهم خلوا من أي صفة من صفات المؤمنين لا صغيرة ولا كبيرة، وأطلقه أيضا عن الزمن، فهم لم يؤمنوا في أي وقت من الأوقات.

ومن أحكام الآية في العقيدة: كونها دالة على خطأ قول من ادعي أن

الإيمان قول باللسان فقط وإن لم يعتقد بالقلب، فالله سبحانه بين هنا أنهم أعلنوا الإيمان الكامل بلسانهم، ومع ذلك نفي كونهم مؤمنين لعدم اعتقاد قلوبهم، وأكدت السنة ذلك ومنه قول أهل السنة: (الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان).

ثم بين سبحانه أن ادعاءهم للإيمان إنما كان من باب الخداع للمؤمنين:

- (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون

الخديعة: الحيلة والمكر، وسميت خديعة لأنها تكون في خفاء.

والخداع: إظهار ما يوهم السلامة والسداد وإبطان الإضرار بالغير، أو أن يوهم صاحبه خلاف ما يريده به من المكروه.

ومخادعة الله سبحانه محالة لأنه العالم الذي لا تخفي عليه خافية،عالم بباطن الإنسان وظاهره، فكيف يخدعه المنافقون؟ من أجل ذلك صرف المفسرون الآية عن ظاهرها وأولوا قوله:(يخادعون الله) بمعان:

أنه خداع من حيثالصورة والشكل لا من حيث المعنى والحقيقة فقط، فتظاهرهم بالإيمان مع كفرهم بالله، واعتبار الله سبحانه انهم مسلمين في الدنيا مع أنه أعد لهم الدرك الأسفل من النار، فهذا الفعل من الله سبحانه ومنهم شبيه بعمل المخادع في صورته، لذلك سماه خداعا. وهو هنا مجاز، وحقيقة الاستدراج لهم من الله سبحانه زيادة في عذابهم.

وقيل: يكون خداع حقيقي من جانب المنافقين فظنوا بجهلهم بالله وصفاته أنه يمكن خداعه كما يفعلون مع البشر، ويؤيد ذلك قوله تعالى عنهم يوم القيامة: (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء).

وقيل: المراد هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إما على حذف المضاف (يخادعون رسول الله) أو أنه أقام الرسول صلى الله عليه وسلم مقامه تعظيما وتفخيما لشأنه، فمن أذى الرسول كمن أذى الله سبحانه، كما قال تعالى:(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله).

والجواب الأخير على أنه علىتقدير محذوف وخلاف الظاهر، والأصل خلافه.

ومن أسباب خداعهم للمؤمنينبإظهارهم الإيمان أنهم أرادوا حماية أنفسهم من القتل وأموالهم وذراريهم من السبي، وطمعا في غنائم المسلمين وإفشاء لأسرارهم.

وقوله تعالى: (وما يخدعون إلا أنفسهم)، أي أن الخداع بالحقيقة لأنفسهم وليس لله وللمؤمنين، فهم بذلك أوردوا أنفسهم النار والعذاب.

والخداع هنا إما يكون على حقيقته من المفاعلة الواقعة بين اثنين، فهم يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل بمنافع الدنيا، وأنفسهم كذلك تحدثهم بالأماني الكاذبة بخداعهم للمؤمنين.

أو يكون (خادع) هنا بمعنى (خدع) المجرد للدلالة على المبالغة وكثرة الخداع لأنفسهم حيث جعله كالمخادعة بين اثنين وقوله: (وما يشعرون)، إما تكون جملة حالية أو مبتدأه، والشعور: الحس، والمشاعر هي حواس الإنسان، فالله سبحانه نفي عنهم الأحساس مطلقا لأن ضرر وعاقبة الخداع واقع بهم قطعا فهو كالشيء المحسوس، وهم مع ذلك لا يشعرون به فكأنهم كمن فقد كل منافذ الإحساس والشعور، وعدم تقييده بأمر يدل على شموله فهم لا يحسون بأي شيء مما ينفعهم أو يضرهم، فحذف المفعول هنا أفاد عموم هذه المعاني.

- قوله تعالى: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)، أشارت هذه الآية إلى كثرة ما في قلوبهم من الشك والحسد والكفر والنفاق وغيرها من أمراض القلوب. فهذه الآية تأكيد لما قبلها من عدم إيمانهم أو تعليل وبيان لسبب نفاقهم. والمرض: صفة توجب وقوع الضرر فتعطل وظيفة القلب. والمرض يكون حسيا وهو الألم العفوي. وقد يكون معنويا وهو ما يوجد في القلب منالحسد والحقد والنفاق والكفر وحب الهوى والشهوات وغير ذلك وهذا النوع الثاني هو المقصود بالآية، وخطره أعظم وأشد من الأول

وعلاجه أصعب ويترتب عليه العذاب في الدنيا والنار في الآخرة بخلاف الأول.

وقوله تعالى (فزادهم الله مرضا) فبين سبحانه أنه ضاعف ضعف امراض قلوبهم بسبب اصرارهم على الكفر والباطل وأجمل سبحانه كيفية هذه الزيادة وتحتمل امورا:

- إن زيادة حسدهم وحقدهم على الإسلام وأهله كل ما انتصر وزاد عدد معتنقيه

- أو زيادة كفرهم بسبب انكارهم لما ينزل ويتجدد من وحي

ونسب الله سبحانه زيادة المرض إلى ذواتهم لا إلى قلوبهم إشارة إلى أن مرض القلب سبب امراض سائر الجسد ويؤكد ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم (الا وان في الجسد مضغه إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب)

وقوله (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) وقليل بمعنى مؤلم واسند الألم للعذاب وانما حقه ان يسند الالم إلى المعذب وذلك مبالغة في بيان شدة العذاب كان العذاب نفسه هو الذي يتعذب فضلا عن صاحبه.

وقد بين سبحانه ان علة هذا العذاب الاليم هو الكذب ليبالغ في شناعة الكذب وقبحهوليدل على حرمته قليلا كان أو كثيرا ومعنى الكذب الاخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه.

وقرئ (يكذبون) بالتخفيف أي في قولهم وقرئ (يكذبون) التشديد أي لا يصدقون اقوال الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكل ذلك واقع منهم

ثم انتقلت الآيات إلى عرض صفة أخرى لهم وهي الإفساد في الأرض والسفه والغرور مع الجهل والتبجح.

- قال تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، وإذا قيل لهم آمنوا...).

وهذه نصيحة ودعوة للمنافقين حتى ينتظموا مع المؤمنين، فدعاهم ولا إلى ترك الفساد والمعاصي، وثانيا إلى التزام الإيمان والطاعة لأن الكمال يحصل بترك الحرام أولا ثم الطاعات ثانيا، وهو ما يسمى بالتخلية ثم التحلية عن الصوفية.

وحذف فاعل (قيل) يدل على تعدد الناصحين لهم ويدل كذلك على شيوع فسادهم وكثرته بين الناس.

والفساد في الأرض خروجها عن كونها منفعة وضياع خيراتها ومصالحها، فنهاهم الله سبحانه عن إفساد الأرض ولم يبين كيفية إفسادهم فيها وتحتمل أمورا:

- إما الكفر والعمل بالمعاصي وترك الطاعات والفرائض.

- وإما بمصادقة الكفار ومعاونتهم على المسلمين بإفشاء سرهم والاستهزاء بهد وبدينهم مما يقوي شوكة الكفار ويغريهم بالمؤمنين فتقع الحروب التي يترتب عليها هلاك الحرث والنسل والدين، وكل هذه

المعاني داخلة تحت معنى الإفساد ومنقولة عن السلف، وفي إطلاق الإفساد بعدم تحديده دلالة على شيوعه وتعدده.

والكفر وارتكاب المعاصي من أعظم أسباب فساد الأرض وضياع خيراتها، فإنها متى كثرت معاصي أهلها وتواترت، قلت خيراتها ونزعت بركاتها، منع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة فكان سببا لجفاف الأرض وخرابها،

وفي المقابل فإن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات والبركات: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا). ونهاهم عن فساد الأرض لأنها محل لمعاشهم وإقامتهم وزرعهم وسيرهم فهي مسخرة لمنافعهم فكيف يفسدونها بصفاتهم! والمنافقون كانوا بالمدينة فقط لكن الله سبحانه عبر عنها بالأرض ليدل على أن الفساد إذا ترك ولم يحاصر انتشر أثره ليشمل كل الأرض، فيلزم من ذلك محاصرة الباطل والمعاصي والفساد والتضييق عليه حتى لا يعم فيكون سببا للفقر والضنك والعذاب لكل البشر.

وكان جوابهم على هذه النصيحة (إنما نحن مصلحون)، أثبتوا لأنفسهم عكس حالهم وهو الإصلاح، وعبر عن ذلك بالجملة الاسمية لتدل على ثباتهم على ذلك، وأداة القصر (إنما) كأن صفة الإصلاح مقتصرة عليهم دون غيرهم. كل ليؤكدوا أنهم مصلحون. وادعاؤهم هذا إما أن يرجع إلى اعتقادهم جهلا بصحة مذهبهم وعملهم، أو من باب التبجح والكذب

وقلب الحقائق كعادتهم المعروفة، ولعل الأخير هو الأولى ويؤكده قولهم في الآية الآتية: (إنما نحن مستهزئون).

ورد الله سبحانه عليهم مؤكدا فسادهم وكذبهم فقال تعالى: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)، والمؤكدات في الآية متنوعة:

- التعبير بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت.

- الاستفتاح بأداة التنبيه التي تفيد الإشارة إليهم وتلفت الأسماع والانتباه إلى وصفهم.

- التأكيد (بأن)، و(هم) ضمير الفصل زيادة في تخصيصهم بصفة الفساد.

- تعريف (المفسدون) التي تفيد حصر الفساد في أشخاصهم.

صفحة رقم ٨٠

- تعليل ادعائهم الكذب بالإصلاح بأنه راجع إلى فقدانهم حاسة الشعور حيث أن فسادهم ظاهر كالشمس في واضحة النهار، فكانوا بذلك أضل من البهائم لأنهم ملكوا العقل والنظر والحواس ومع ذلك أهملوا استعمالها فيما يدلهم على الله وينفعهم دنيا وآخرة.

وبعد دعوتهم إلى ارك المعاصي دعاهم إلى الإيمان الصحيح فقال تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون).

– حذف فاعل (قيل) كما مر، و(الناس) هم الصحابة رضي الله عنهم، فتكون (ال) إما للعهد لأنهم معروفون، أو للجنس فتقصد به نوع من الناس كاملوا الإنسانية والإيمان. فدعاهم الله سبحانه إلى الإيمان الصحيح القائم على الإخلاص والعمل وليس مجرد الإيمان.

فجاء ردهم من نفس باب التعنت والتبجح والكذب أو من باب الجهل والغرور فقالوا: (أنؤمن كما آمن السفهاء)، والاستفهام هنا للإنكار، ومقصودهم (بالسفهاء) إما الصحابة رضي الله عنهم المعبر عنهم (بالناس)، أو النساء والصبيان، أو عبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم منهم، ووصفهم لهم بذلك يرجع إما إلى جهلهم وإهمالهم للنظر السديد في الأمور، وإما عنادا وحقدا عليهم واستهزاء بهم لأنهم كانوا في عزة وشرف دنيوي، والصحابة فقراء.

ثم أكد الله سبحانه كونهم هم السفهاء بقوله: (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)، فعدد أنواع المؤكدات كما مر في الآية السابقة، وعلل هنا لكذبهم بقوله: (ولكن لا يعلمون) بخلاف تعليله في الآية السابقة بقوله: (ولكن لا يشعرون)، والسبب في ذبك أن صفتهم في الآية السابقة هي الفساد والمعاصي

وهو أمر يدرك بأدنى تأمل، فهو من الأمور المحسوسة المشاهدة للناس، ومع ذلك لم يشعروا به فهم أبلد من البهائم. وأما الصفة المثبتة لهم في الآية الثانية هي الجهل وعدم الإيمان الصحيح، وذلك يحتاج إلى

نظر وفكر واستدلال، فناسب ذلك أن ينفي عنهم العلم، وكذلك لأن العلم عكس السفه المذكور في الآية.

ومن آداب الآية وتوجيهاتها:

١) أن الجهل والتعنت والغرور صفات متأصلة في أهل الباطل والمعاصي والفساد.

٢) أن أهل الحق والدعوة والدين معرضون لأشد أنواع الإيذاء سواء الحسي أو المعنوي بوصفهم عكس حالهم بالفساد والسفه والجهل.

٣) احتياج أهل الدعوة والدين إلى الصبر، وقوة العزيمة والتحمل اقتداء بصبر النبي صلي الله عليه وسلم وصحابته على أفعال المنافقين وأقوالهم.

ثم عرضت الآيات صفة أخري عملية للمنافقين وهي الاستهزاء والخداع للمؤمنين قال تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إذا معكم إنما نحن مستهزئون).

وارتباط هذه الآية بما قبلها يكونها ترجمت عن اعتقاد المنافقين فعرضت موقف عملي وسلوك فعلي لهم في خداع المؤمنين. فهم عند مقابلتهم يظهروا

لهم المودة والإيمان والموالاة مصانعة ونفاقا، فإذا انفردوا بإخوانهم من الكفار كشفوا عن وجههم المذموم.

واختلف أسلوب التعبير في الموقفين بما يناسب الحال، فمع المؤمنين: (قالوا آمنا) فنجد التعبير باللفظ (لقوا) التي تدل على اللقاء العابر، فهم لا يأنسون بالمؤمنين ولا يجلسون معهم، بل يجمعهم الطريق فقط، وعبروا عن إيمانهم لهم بما يناسب حالهم، (قالوا آمنا) فهي جملة فعلية تدل على التغير والتبدل لأنهم غير ثابتين على الإيمان، وكذلك دون تأكيد، مع الإطلاق الموهم، فقد يقصد به إيمان باللسان فقط، أو إيمان بدين اليهود أو غير ذلك، وكل ذلك يتفق مع حالهم فهم مؤمنون لسانا فقط، لا عن رغبة وحب.

واختلف تعبيرهم مع إخوانهم: (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون).

فالفعل (خلوا إلى شياطينهم) يفيد طول المكث وصفاء المناجاة والأنس بهم، وعدى الفعل ب (إلى) ليكون بمعنى مضي أو انصرف، وإما تعديته بالحرف ب (خلوت به) فإنه يحتمل معنى الانفراد أو السخرية منه.

(وشياطينهم): هم رؤساؤهم من الكفار والمنافقين.

ثم عبروا لهم عن صادق موالاتهم: (قالوا إنا معكم)، فأكدوا موافقتهم وصفاتهم لهم بأمور:

١) التعبير بالجملة الاسمية لتدل على ثبات موقفهم مع الكفار، بخلاف تعبيرهم للمؤمنين بالجملة الفعلية.

٢) التأكيد لموقفهم ب (إنا)، ثم تعيين أصحابهم وتوجيه الخطاب لهم بقولهم (معكم) بخلاف الموقف السابق المطلق.

وزيادة في التأكيد وبيان ثباتهم على عقيدة الكفر والنفاق أنهم بينوا لإخوانهم سبب ايمانهم الظاهر عند ملاقاة المؤمنين بأن ذلك من باب اللعب والسخرية بهم، فبان بذلك ازدراؤهم للدين وحبهم للكفر فقالوا: (إنما نحن مستهزئون)، فهذه جملة مؤكدة لما سبقها. والاستهزاء:هو السخرية والاستخفاف، وأصله من الخفة.

ثم عرضت الآيات عقاب الله لهم فقال: (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعملون). وأسلوب الآية يشير إلى عظم العقوبة وشدتها بما يلائم هذا الجرم، فجاءت جملة مستقلة مبتدأه بلفظ الجلالة، فالله سبحانه بنفسه هو الذي سينتقم منهم! ثم نص الله على المفعول (بهم) زيادة في التنكيل والتهديد، وعبر عن ذلك بالجملة الفعلية التي تفيد حدوث وتجدد النقم والبلايا من الله، بخلاف قول المنافقين:(نحن مستهزئون) فلم يعين المفعول لجنبهم وخوفهم من كشف امرهم، وكون الله سبحانه لم يعاجلهم بالعقوبة ليس رحمة بهم ولكن من باب الاستدراج لهم، والامهال حتي يزدادوا جرما فيستوجبوا العقاب العظيم: (ويمدهم في طغيانهم يعمهون).

وأمد بمعنى زاد، وعن ابن مسعود: إنه التمكين من العصيان، وقيل: الاملاء والامهال لهم من الله سبحانه، وقيل: هو فتح الدنيا عليهم من المال والأولاد وتطويل الاعمار، ومعافاة الابدان كل ذلك ليستوجبوا أليم العقاب.

والطغيان: هو الغلو في الكفر ومجاوزة الحد في العتو، ومنه قوله تعالى(إنما لما طغي الماء)، وقوله عن فرعون: (اذهب إلى فرعون انه طغى).

والعمه: هو التحير والتردد، والعمه مثل العمى إلا أن العمى عام يشمل عمي البصر والبصيرة، والعمه يكون عمى الرأي خاصة.

وانكر الزمخشري اسناد مدهم في الطغيان والكفر إلى الله سبحانه لأن ذلك الفعل قبيح والله منزه عن فعله، وأول ذلك بأمور:

- أنه منع ألطافه عنهم وتوفيقه لهم فبقوا في ظلمات الكفر والطغيان.

- وقيل: هذا المد من فعل الشيطان ووسوسته لهم ونسبه إلى الله سبحانه لأنه هو الممكن للشيطان بفعل ذلك.

والصواب أن طغيانهم من فعل الله سبحانه، وأنه هو الذي أحدهم في الضلال بسبب إصرارهم على الكفر والنفاق والضلال، لأن ذلك هو ظاهر الآية كما أنه عدل من الله سبحانه مقابل أفعالهم، وأنه سبحانه، فأولوا ذلك بأمور:

- ان استهزاء الله هنا المقصود به عقوبته لهم، وسمي ذلك استهزاء من باب تسمية العقاب باسم الذنب وإن خالفه في المعنى، كقوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم)، والثاني لا يكون اعتداء.

– وقيل: استهزاء الله هنا معناه الحقارة والإهانة بهم، لأن المستهزئ غرضه إهانة من يستهزئ به، فالمراد هنا تحقير شأنهم.

– وقيل: يفعل بهم أمورا هي في نظر الناس شبيهة بالاستهزاء، ومن ذلك:

– أنه سبحانه أجرى عليهم أحكام المسلمين في الدنيا فكأنهم مثلهم، ومع علمه بأنهم من أهل النار.

صفحة رقم ٨٥

– وقيل: أنه يفتح لهم من النار باباً إلى الجنة فيسرعون إليها فيغلق دونهم، والمؤمنون ينظرون إليهم ضاحكين: (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون).

– وقيل: أنه يجدد لهم النعم كلما أحدثوا ذنوباً وفساداً فيظنون أن ذلك محبة لهم، وأنهم على حق وهو إملاء لهم، وقيل غير ذلك.

والأولي في معنى استهزاء الله سبحانه إما أن يكون من باب صفات أفعال الله سبحانه فنعتقد إثباتها على الوجه الذي يليق بكماله دون التعرض لكيفية الاستهزاء، ويكون من باب المتشابه مثل اعتقادنا في أسمائه سبحانه وصفاته الإثبات مع التنزيه دون التعرض للكيف.

أو نثبت الاستهزاء لله سبحانه كما أثبته لنفسه في الآية، ويكون معناه من فعل الله سبحانه بهم كفعل المستهزئ من إجراء أحكام المؤمنين عليهم مع أنهم من أهل النار، أو إملاءه لهم، أو فتح باب الجنة لهم ثم

إغلاقه... إلى غير ذلك، ويكون الاستهزاء هنا على معناه الحقيقي، ويخرج عن معنى العبث واللعب لأنه جار على وجه العقاب والانتقام منهم مقابلة على أفعالهم القبيحة.

وبعد أن ذكر الله سبحانه مذهبهم الباطل نظرياً ثم عملياً بعرض أفعالهم وخداعهم للمؤمنين، عقب ذلك بتقييم هذا الاعتقاد الباطل وبيان ثمرته، فإنهم بتركهم الإيمان والهدى واعتناقهم للنفاق والباطل قد خسروا خسراناً مبيناً في الدنيا والآخرة.

– فقال تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين).

صفحة رقم ٨٦

فأشار إليهم (أولئك) لبعدهم عن الحق وغلوهم في الباطل والضلال في أقوالهم وأفعالهم مع المؤمنين، ولذلك آثر اسم الإشارة للبعيد دون القريب.

والشراء: هو استبدال السلعة بالثمن. والتجارة: هي صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشتري للربح.

والبيع والشراء هنا مجاز عن الاستبدالوالاختيار، فإنهم لما تركوا الهدى والإيمان وآثروا الضلال والكفر جعلوا بمنزلة من دفع الهدي ثمناً للضلال والكفر على سبيل الاشتراء. فالتجارة هنا ليست على الحقيقة لأنها عبارة عن مقايضة ومبادلة للسلع، وهنا لا توجد سلعة ولا مقايضة، وذلك من الأساليب البلاغية العالية التي تجلي المعنى

المعنوي، فتلبسه الزي الرائع فيستقبله الذهن باشتياق فيسهل فهمه، ويؤثر في صاحبه.

– وقوله تعالى: (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)، وأسند الربح إلى التجارة، والذي يربح هو التاجر، وهذا مجاز آخر تأكيداً للأول حتى يؤكد للسامع أن التجارة حقيقة، فكأن المتكلم نسى أنه تشبيه ومجاز، وهذا يسميه علماء البلاغة الترشيح.

والعطف بالفاء في قوله: (فما ربحت تجارتهم) يدل على أن الخسارة وقعت في نفس وقت العاقد، فهي صفقة خاسرة من أول وقتها لذلك أسند سبحانه الخسارة للتجارة نفسها وليس لصاحبها كقولهم ناقة تاجرة، أي من حسنها وسمنها تبيع نفسها، وكقولهم: ليل نائم ونهار صائم، فأسند الفعل إلى غير فاعله لمعلاقة الملابسة، ويسمى المجاز العقلي.

والمقصد الأصلي من ذلك الأسلوب تصوير خسارتهم بفوت الفوائد المترتبة على اتباع الهدي التي هي كالريح، وإضاعة الهدي نفسه الذي هو كرأس المال زكاتها تجارة لا ربح فيها إطلاقا، بل خسر فيها أيضا رأس المال،

فهي خسارة فادحة تقضي على صاحبها فلا يقوم ابدأ، خسارة لا أمل في تعوضها ابدا كتجارات الدنيا، خسارة يترتب عليه فقدان سعادة الدنيا والآخرة. واكد الله سبحانه ذلك بقوله بعد ذلك: (وما كانوا مهتدين) أي وما كانوا على هدي وفلاح في بيعهم للهدى بالضلال، أو ما كانوا في

علم الله وقدره مهتدين ابدا، أو يشير إلى عدم معرفتهم بطرق التجارة الرابحة فيكون ايضا من باب ترشيح المجاز ونسيان التشبيه وهو أولى.

وليس المقصود بالهدى الذي باعوه هو الإيمان لانهم ليسوا بمؤمنين فعنى الوصول إلى معرفة الله بالعقل، وكذلك ما ولدوا عليه من الفطرة الصحيحة.

ضرب الأمثال وأثره في إبراز صورة النفاق

قال تعالى: مثلهمكمثل الذي استوقد ناراّ فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صم بكم عمى فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير (٢٠)

المعنى الإجمالي وترابط الآيات بما قبلها:

بعد أن عرض الله سبحانه صفات المنافقين تفصيلا، أشار إليها بأسلوب آخر إجمالا وهو أسلوب التمثيل، فضرب لحالهم مثلين:

الأول:

ناري فشبه ما هم فيه من ضلال وهشة وحيرة وتخبط، بقصة من طفئت ناره التي يهتدى بها فجأة، وهو في ليل مظلم وصحراء موحشة، وكان مع ذلك أصم أبكم أعمى.

الثاني:

مثل مائي شبه فيه حيرتهم أيضا وفزعهم بقصة قوم أصابتهم السماء بأمطار غزيرة مظلمة في ليل حالك، مليئة بالرعد والبرق والصواعق،

يكاد البرق من شدته يخطف أبصارهم، والصواعق من قوتها تصم آذانهم، فهم في حال اليأس، وأحاط به الهلاك والفزع من كل جانب.

فائدة الأمثال:

وأسلوب الأمثال من ضروب البلاغة الرفيعةلفوائده المتعددة في التأثير في قلوب السامعين وإقناعهم بالفكرة والصورة، كما أنه يجذب الانتباه والتركيز، ويجعل الأمر المعنوي محسوسا شاهدا بالعيان، والأمر المتوهم حقيقيا ماثلا للأذهان، ويصير الخفي جليا واضحا، والغائب شاهدا. ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد إذا مثلبالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورتهمن الإخبار بضعفه مجردا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفى سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون).

تحليل الآيات:

مثل الأول للمنافقين:

قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا)، المثل: بمعنى المثل وهو النظير، ويقال: مثل ومثل ومثيل، كشبه وشبه وشبيه. فالمثل: هو ما يضرب ويوضع لبيان النظائر في الأحوال ثم قيل للقول التأثر الممثل مضربه بمورده، وشرطة أن يكون فيه غرابة.

ـ (استوقد نارا): وقود النار سطوعها وارتفاع لهبها، والنار جوهر لطيف نضئ حار محرق، مشتقه من (نار ينور) بمعنى نفر وتحرك، والنور مشتق منها وهو الضوء و(السين) إما زائدة، أو المطلب أمن يطلب من غيره إيقادها، والأخير هو الراجح ونكر (نارا) إشارة إلى كونها نارا عظيمة كثيرة الضياء.

(فلما اضاءات ما حوله ذهب الله بنورهم) (فلما) الفاء عاطفة جملة الصلة، وهى أداة شرط وجوابها إما قوله: (ذهب الله بنورهم)، أو محذوف تقديره: (طفئت) و(أضاء) يستخدم لازم، أي أضاءت النار بنفسها، ومتعدى أي أضاءت النار غيرها و(ما)اسم موصول مفعول ب (أضاء) وذهب واذهب بمعنى أزال النور وذهب، ابلغ النور إلى الله سبحانه كناية عن شدة غضبه عليهم وشدة ظلمتهم، وقال (ذهب بنورهم) ولم يقل (بضوئهم) لأن النور أعم، فدل على انطماس النور كلية بخلاف (الضوء) فقد يكون معه نور لا يكفى للرؤية.

والضمير في: (نورهم) إما أن يرجع إلى المستوقد نارا فيكون معنى (ذهب الله بنورهم) أي أطفاها الله سبحانه، وقد يعني بها نارا حقيقية، أو كناية عن نار الفتن والفساد فتكون مجازا وتكون هذه الجملة من باب ترشيح المجاز ونسيانه كأنه حقيقة.

أو يعود الضمير على المنافقين فيحتمل (ذهب نورهم أمورا) معاني:

ـ تميزهم عن المؤمنين في الأخرة بانطفاء نورهم عند عبور الصراط

ـ أو اطلاع المؤمنين على نفاقهم في الدنيا فيظهر كفرهم

ـ أو كناية عن ختم الله على قلوبهم بالكفر فلا يؤمنون أبدا.

ثم أكد الله سبحانه ما سبق فقال: (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) وترك بمعنى صير تنصب مفعولين، و(في ظلمات) هي المفعول الثاني،

ونكرها للدلالة على ما هم فيه من ظلام وضلال لا مخرج منه، (لا يبصرون)جملة في محل نصب حال من الضمير في (تركهم)، وحذف المفعول اما كناية عن ضلالهم في كل امورهم، واما انه فعل لازم بمعنى أنهمعمي لا يبصرون اصلا.

ثم زاد الله سبحانه في بيان مدى ضلالهم وحيرتهم يكون المنافقين فاقدي الحواس صم بكم عمي فكيف يهتدون الطريق الصحيح حتى مع بقاء النور.

(صم بكم عمي)، وهذا الوصف من باب المجاز لأن المنافقين كانوا من احسن الناس شكلا وجسما: (وإذا رايتهم تعجبك أجسامهم)، ولكنهم لما سدوا الأذان عن سماع الحق والألسن عن الدعوة إليه، وابو ان ينظروا بأعينهم في آيات القرآن وأدلته الساطعة وعن النظرفي آيات الكون الدالة على عظمة الخالق لماعطلوا هذه الحواس عما خلقت له من معرفة الحق،فكأنهم فقدوها أو اتلفوها أو يكون ذلك من بابا المبالغة في ذمهم بكونهم من الجهل والبلادة اسوأ حالا من البهائم والجمادات التي لا تسمع ولا تتكلم ولا تبصر، ويعد هذا من التشبيه البالغ والتقدير:(هم صم بكم)أخبار متتابعة لمبتدأ محذوف،وكان الأثر المترتب على تعطيل

حواسهم هو قوله تعالى: (فهم لا يرجعون) والمفعول المحذوف يحتمل امورا:

ـ أنهم لا يرجعون عن ضلالهم.

ـ أو لا يرجعون عن الإسلام ابدا.

ـ أو هو كناية عن تحيرهموترددهم في مكانهم ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون.

واللهسبحانهفيهذاالمثلشبهجماعةالمنافقينبمناستوقدناراوهوواحد،فكيفيصحتشبيهالجماعةبالواحد؟

- قيل: انالذيهنابمعنىالذينكقولهتعالى: (وخضتمكالذيخاضوا).

- وقيل: قصدب (الذي) هناالجنس،والتقدير: (كمثلالفوجالذياستوقدنارا).

- وقيل:

التشبيههناليسللذواتولكنشبهتقصةالمنافقينوصورتهمبصورةالمستوقدنارا، ويصحهناتشبيهالجمعبالواحدكقولهتعالى:

(مثلالذينحملواالتوراةثملميحملوهاكمثلالحماريحملاسفارا). وكقولهتعالى: (واضربلهممثلالحيوةالدنياكماأنزلناهمنالسماء).

فشبهسرعةالدنياوقلتهابسرعةزوالالخضرة.

وفيضربالمثللهمبالنارحكمثلاث:

–

أنالمستضيءبالناروالمهتديبهامستضيئمنجهةغيرهلامننفسهوكذلكالمنافقف كانايمانهباللسانفقطكالمستعار.

– أندوامالناريحتاج إلى دوامالوقود،وكذلكنورالإيمانيحتاج إلى صحةالاعتقادودوامالطاعة.

صفحة رقم ٩٣

انالظلمةالحادثةبعدالنورأشد على الانسانواصعبمنظلمةلميسبقهانور.

فإنقيلانالمستوقدللنارمعهنور،

وقداستفادبهقبلانطفائهفكيفيشبهبهالمنافقوليسلهنور،

ولمينتفعبالإيمانالبتة؟والجواب على ذلكمنوجهين:

الاول:

انالمنافقينامنوفعلاعندوصولالاسلام إلى المدينةثمنافقوابعدذلك، فإنهماكتسبوانوراولابإيمانهم،ثمبنفاقهمابطلواذلكالنورووقعوافيالحيرةوالـ ضلال. والذييدل على إيمانهماولاقولهتعالى: (بأنهمامنواثمكفروافطبع على قلوبهم).

والثاني:

أنهملميؤمنواابداولكنبإظهارهملكلمةالتوحيدباللسانفقط،فقدحقنوادمائهموسـ لموافيامو الهمواهلهموعدذلكمنقبيلالنورالعائدعليهممنالنطقبالشهادتينفقط.

المثلالثانيالمنافقين:

قولهتعالى:

(أوكصيبمنالسماءفيهظلماتورعدوبرق...)ضرباللهسبحانهللمنافقينمثلاآخ راحتىتظهرأحوالهمبوضوحفتتميز

صورتهم للمؤمنين، وينكشف وجههم القبيح. فمثل المنافقين في ترددهم وضلالهم وحيرتهم ورعبهم كمثل قوم أصابتهم السماء بمطر شديد مظلم في ليلة مظلمة أيضًا، مع رعد وبرق مرعب تكاد صواعقها تضم آذانهم، فثبتوا في مكانهم متحيرين لا يدرون كيف التصرف والنجاة.

وهذا يسمى التشبيه التمثيلي، وهو إما أن يكون مركبًا شبه فيه صورة مركبة من مجموعة أشياء تضامت وأدت معنى واحدًا بصورة أخرى، وإن لم تكن أفراد الجملتين وأجزاؤها مشبهة بأفراد الأخرى وأجزاؤها.

وهنا شبه حالة المنافقين وما هم فيه من حيرة ودهشة ورعب بصورة قوم أصابتهم السماء بهذا المطر الشديد المصحوب بالرد والبرق والصواعق المهلكة.

وإما أن يكون التشبيه مفرقًا وهو أن يكون كل جزء من أجزاء المثل مشبه بنظيره من أجزاء الممثل، وهنا شبه الإسلام والقرآن بالمطر النافع، وما فيه من الوعد والوعيد بالرد والبرق، وشبه المنافقين وأمراضهم بالظلمات، وشبه ما يصيبهم من قبل الإسلام من الفزع والفتن والتكاليف بالصواعق، والأبلغ كونه تشبيهًا مركبًا.

والتمثيل الثاني للمنافقين أبلغ من الأول لأنه دل على فرط حيرتهم وشدة فزعهم وهلعهم، ولذلك أخره عن الأول. (مشار في الهامش إلى: انظر الكشاف ٢١٣/١)

ومعنى أو هنا للتساوي أو التفصيل، أي من المنافقين من يشبه حاله بحالة المستوقد، ومنهم من يشبه بحال ذوي المطر، أو تلك القصتين سواء في بيان حالهم فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، ورجح أبو حيان أنها للتفاصيل. (مشار في الهامش إلى: البحر المحيط ١٣٨/١)

و(الصيب): المطر الذي يصوب، أي ينزل ويقع من السماء والمعنى هنا كأصحاب صيب على حذف المضاف.

و(السماء): هي المظلة المرفوعة بقدرة البارئ ذات البروج، وفي اللغة: كل ما علاك فهو سماء، وأصل السماء من (يسمو)، وذكر السماء مع أن المطر معلوم أنه نازل منها ليدل على شموله كل أقطارها فهو مطر نازل من كل أفق، لذلك ذكرها وعرفها.

(فيه ظلمات) جملة من مبتدأ وخبر، ويعني به ظلمة المطر الكثيف مع ظلمة السحاب والليل، فهي ظلمة شديدة حالكة لذلك ذكرها.

(ورعد) قيل: هو صوت الملك الذي يسوق السحاب، وقيل: هو صوت اصطكاك أجرام السحاب.

(وبرق): نور يظهر عند اصطكاك أجرام السحب فيضيء ويخمد سريعًا.

(الصواعق): هو صوت شديد من صوت الرعد يقع معه قطعة نار تحرق ما تصيبه ولكن تزول سريعًا.

وذكر: (رعد وبرق) منكرًا، وكذلك (ظلمات) ليدل على أنها أنواع عظيمة، فهي ظلمات دليجة، ورعد قاصف، وبرق خاطف. وأفرد (رعد وبرق) لأن كل منها نوع واحد بخلاف (ظلمات).

ودل سبحانه على شدة الصواعق ومدى رعبهم وخوفهم بقوله: (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت)، فالصوت الرهيب الذي يصم الأذن وما هم فيه من رعب ودهشة لما أصابهم كل ذلك جعلهم غير واعين لما يفعلون ويتصرفون، لذلك عبر (بأصابعهم) مع أن سد الأذن بكون بطرف السبابة فقط، فهم وضعوا أصابعهم كلها كناية عن ذهاب وعيهم وعقولهم من الرعب والدهشة، فهم على صورة من يريد إنقاذ نفسه من الموت بأي وسيلة.

ثم عقب سبحانه على ذلك ببيان قدرته على إهلاكهم كلية في أي لحظة بسبب وبدون سبب فقال: (والله محيط بالكافرين)، والإحاطة هنا ليست على معناها الحقيقي من الدوران بهم والحصر لهم في مكان فهي مؤولة بمعنى أنهم لا يعجزونه ولا يفوته أحد منهم، وقيل: هي كناية عن العلم بكل أحوالهم، وقيل: كناية عن إهلاكهم كقوله تعالى: (وأحيط بثمره)، أي هلك بستانه.

ثم زاد في توضيح الصورة وترشيحها بقوله تعالى:

و(كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا)، أي هم متحيرون غير ثابتين على مبدأ وعقيدة. فإذا ترتب على اتباعهم للدين والإسلام سلامة في نفوسهم وأموالهم وذريتهم يمدحون الدين ويتابعونه، وإذا أصابهم بلاء من فقر وحرب كرهوا الدين ونسبوا ذلك إلى اتباعهم له وتمسكوا بنفاقهم. فحالهم كأصحاب المطر عندما يظهر لهم برق يضيء الطريق يسرعون الخطى والمشي، وإذا ذهب البرق وقفوا في مكانهم متحيرين لا يعرفون أين يسيرون.

وعبر في حالة البرق ب(كلما) وعند الظلام ب(إذا) وذلك لبيان حرصهم على اغتنام الضياء والتقدم خطوات بخلاف الظلام. والفعل: (أضاء وأظلم) إما متعد فيكون المفعول محذوفا، وإما لازم.

ثم ختم الله سبحانه قصة المنافقين ببيان قدرته الشاملة عليهم وعلى كل شيء:

(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير)، أي لو شاء الله سبحانه لأهلكهم وعبر عن ذلك بذهاب السمع والبصر، ومفعول (شاء) محذوف دل عليه الكلام.

أدلة التوحيد والعبادة

قال تعالى: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون).

المعنى الإجمالي:

يأمر الله سبحانه الناس جميعا بعبادته وتوحيده والاستسلام لحاكميته ودينه ليتحصلوا على خشيته وينجوا من عقابه. وقد جاء هذا الأمر الإلهي من خلال أسلوب الترغيب والتنبيه على استحقاق الله لذلك بعرض أدلته المتنوعة فهو ربهم الذي تولاهم بالرعاية فقد خلقهم ابتداء وخلق آباءهم ثم هيئ لهم سبيل حياتهم فجعل الأرض مسخرة لهم قرارا، ونصب فوقها السماء، ثم أنزل منها الماء فأخرج به صنوف أرزاقهم ومعاشهم، فكيف يليق بالعقلاء والعلماء بذلك أن يجعلوا معه آلهة غيره!

مناسبة الآيات لما قبلها:

حكى الله سبحانه موقف المكلفين من القرآن وقسمهم إلى ثلاثة فرق وعرض أحوالهم وصفاتهم، وانتقل بعد ذلك إلى عرض أدلة التوحيد واثبات الغائب تفننا في الحديث وجذبا لانتباه المستمع وذهنه وعقله.

تحليل الآيات:

-قوله تعالى: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم).

(يا) حرف نداء في الأصل للشيء البعيد، ثم استعملت في نداء من سها وغفل وإن كان قريبا لأنه بمنزلة البعيد. ومن ذلك مناداة الداعي لربه ب (يا) مع أنه أقرب إليه من حبل الوريد بسبب استبعاد الإنسان لنفسه عن القرب من الخالق استنقاصا وحطا لها؛ بسبب ذنوبه وأفعاله التي لا تأهل النفس للقرب من ساحة القدس والطهارة.

(أيها الناس) أي: وصلة نستعملها في نداء ما فيه ألف ولام فلا نقول: (يا الناس)، وهي اسم مبهم يعرب منادي مبني على الضم، ولابد أن يأتي بعده اسم يزيل إبهامه ويكون صفة (لأي) وهو هنا (الناس)، والهاء في (أيها) لتأكيد حرف النداء زيادة في التنبيه.

وقد أكثر الله سبحانه من استخدام هذا الأسلوب في نداء عباده في القرآن لما فيه من تأكيد ومبالغة في الحث بحرف النداء للبعيد، ثم الإبهام والتعيين (بأي وصفتها) ثم بأداة التنبيه (ها)، وذلك لأن كل ما نادى الله به عباده من أوامر ونواه، ووعد ووعيد وغير ذلك أمور عظام يجب أن يستيقظ لها الناس ويعيرونها الاهتمام وهم عنها غافلون.

(اعبدوا ربكم)، العبادة: هي أقصي غاية الخضوع والتذلل لله تعالى، باعتقاد توحيده والتسليم لشرعه وحكمه، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه صاحب أعظم النعم فكان أهلا ببذل غاية الخضوع (على الهامش: انظر الكشاف ١/٦٢).

وخص الله سبحانه من هنا من أسمائه (الرب) ترققاً وتعطفاً عليهم وتنبيهاً إلى نعمه المتوالية عليهم، فهو المربي والمصلح لهم في كل وقت ونفس، بإصلاح حالهم وإتباع شرعه.

والأمر هنا عام للمؤمنين ليزدادوا إيماناً وثباتاً عليه، وللكفار ليوحدوه أولاً ثم يعبدوه. و(الناس) لفظ عام مخصوص هنا بالمكلفين.

- قوله تعالى: (الذي خلقكم والذين من قبلكم)، (الذي خلقكم) صفة للرب سبحانه، وخص صفة الخلق هنا لإقامة الحجة عليهم لأنه مختص بالخلق دون غيره (أفمن يخلق كمن لا يخلق) وللدلالة على نعمه عليهم بخلقهم من العدم على أكمل صورة، وتميزهم بالعقل عن غيرهم. وهو تنبيه للكفار، وتميز لله الحق سبحانه دون آلهتهم التي يعبدونها ولا تخلق، وهي مخلوقة.

- (والذين من قبلكم) عطف على الكاف في (خلقكم) والغرض من تذكيرهم بخلق من قبلهم أمور:

- أن من قبلهم كالأصول والآباء لهم، فذكرهم بنعمه عليهم قبل خلقهم.

- أن في تلك عظة وعبرة لهم ليذكروا أنهم سيموتوا مثلهم، ويعرفوا أن سنن الله سبحانه ستجري عليهم كما جرت على من سبقهم.

ومعنى (خلق) إما التقدير والتسوية فتطلق أيضاً على البشر، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (فتبارك الله أحسن الخالقين)، وكقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتكون طيراً بإذن الله). وتأتي خلق بمعنى الإنشاء والاختراع على غير مثال وبغير أدوات، فيكون خاصاً بالله سبحانه.

- قوله تعالى: (لعلكم تتقون)، (لعل) للترجي والتوقع ولا يكون تلك إلا عند الجهل بعاقبة الأمر، والله سبحانه علم ما كان وما سيكون، ولذلك فلا تكون منسوبة هنا إلى الله سبحانه وتحتمل أموراً:

- أن تكون (لعل) بمعنى (كي)، كقول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

- أنها تدل على الوقوع لا على الترجي، لأن عادة الملوك في تعبيرهم عن تحقيق المطلوب بقولهم (لعل) أو بإشارة أو غير ذلك، فهي هنا من هذا الباب.

- أن الترجي هنا بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى الله سبحانه فتكون على معناها من الترجي، فيكون المعنى اعبدوا الله على الرجاء منكم والطمع أن تصلوا إلى التقوى، وهذا هو الأولى في معناه وعلى هذا يتنزل ما جاء مثلها من الآيات كقوله تعالى: (لعلكم تعقلون)، (لعلكم تشكرون)، (لعلكم تذكرون) وغيرها.

ولعلكم تتقون (إما متعلق ب (اعبدوا)، أو ب (خلقكم)، والصواب أنه متعلق بالأول لأنه أصل في الآية وغرض أساسي لها بخلاف جملة الموصول، ولأن الله سبحانه قد يخلق ناسا للنار لا إلى التقوى والطاعة.

فقه الآية وما يؤخذ منها:

وجوب عبادة الله سبحانه على جميع الناسوالاستسلام لشرعه واستحقاقهلذلك بما أسبغهم من جزيل نعمه.

عظمة أسلوب القرآن وقوة حجته ومخاطبته للعقول والقلوب والعواطف بعرض أوامره ودعوته من خلال التذكير بالأنعم ذكر الأدلة وبيان الثمرة.

أن خشية العبد وخوفه من الله سبحانه ونجاته من عقابه مترتب على ترقيه في مراتب طاعتهواجتنابه لنواهيه ومساخطه.

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك لعرض باقي أدلة التوحيد المستوجبة لعبادة الرب سبحانه:

-قال تعالى: (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء).

-(جعل) تأتي بمعنى (صير) فتنصب مفعولين أي صير الأرض فرشا للناسمسخرة لهم كما يفترشون الفراش فهي مذللة لهم يزرعونها ويصلحون منها طرقا ويبنون عليهاويستخرجون كنوزها... إلخ

ويكون (فراشا)مفعول ثاني. وتأتي بمعنى (خلق) كقوله تعالى: (جعل الظلمات والنور) وتعرب فراشا حالا.

(والسماء بناء) شبه السماء بالنسبة للأرض كأنها قبة عليها وسقف لها، وشبهها بالبناء لأنه أبلغ في الإتقان والإحكام وبناؤها بهذا الارتفاع والاتساع دون أساس وعمد، مع كونها سبعا وعليها أثقال متعددة من الأفلاك والكواكب، لا يعرف عددها ولا حجمها إلا الله، كل هذا دلالة على عظمة خالقها وممسكها، ولو كانت مبنية بعمد وعلى أساس لكانت أعظم المخلوقات وأعجبها، فما بالنا وهي بدون ذلك!

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا)،(وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض)

والدليل الخامس على الوحدانية قوله تعالى: (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم). هذه الآية امتنان على الإنسان بخلق طعامه وشرابه بإنزال ماء السماء على تربة الأرض فيخرج أصناف الثمرات والحبوب لمعاش الإنسان، كقوله تعالى: (أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقصبا، وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم). وفيها دلالة على عظمة الخالق وقدرته وحكمته المنزل للماء بقدر،والمهيء للأرض، والمخرج من أرض واحد ثمرات مختلف طعومها وألوانها

وقوله (فاخرج) الفاعل في الحقيقة هو الله سبحانه، وتعالى فهو المنزل، للمطر والمخرج للثمر، ولكنه ربط ذلك بأسباب، كما جعل التقاء الزوجين سبب لتكوين الجنين. والله سبحانه قادر على اخراج الثمر والجنين دون هذه الاسباب بدليل خلق اول انسان، وكذلك خلق طعوم اهل الجنة دون حرث وعمل. ولكن سبحانه جعل ذلك وفق أسباب لحكم منها ليعلم الإنسانأنه كما يحتاج في الدنيا للعمل والحرث والاجتهاد لكي يعيش فكذلك الآخرة تحتاج لبذل الطاعة واجتناب المعصية.

ليتدبر قدرة الله سبحانه عندما يدرس هذه الاسباب ويبحث في خواصها وفوائدها تدله على عظمة الخالق وبديع صنعه وحكمته وعلمه كما أنه لو خلق ذلك دون سبب لكان برهانا قاطعا وسببا ضروريا على وجود الخالق وايمان الناس دون كد وتعب، فيذهب التكليف والاختبار (ومن) في قوله تعالى (ومن الثمرات) وللتبعيض وتنكير ماء رزقا للدلالةعلى

ايضاالتبعيض، والمعنى أنه سبحانه: اخرج بالماء بعض الثمرات ليكون بعض من ارزاقكم.

ويرجع الإعجاز البلاغي في ترتيب هذه الادلة فإنه سبحانه قدم خلق الإنسان لأنه عرض الأدلة من أجله، ونظره في نفسه من أقربالأدلة ثم ثنى بخلق الآباء وثلث بالأرضلأنهاأقربإليه، من السماء وقدم السماء على نزول المطر وإخراج الثمرات، لأن هذه كالأمر المتولد بين السماء والأرض والاثر، متأخر عن المأثور، كما أنه قدم ذكر المكلفين لأن خلهم أحياء

أصل وسبب لخلق باقي الكون فيلق السماوات والأرض وما فيهما الماء والرزق فإنما ينتفع بذلك بشرط خلق الإنسان ويمد عرض تلك الادلة المتنوعة يظهر جميل وغباء من اتخذ مع الله شركاء فقال تعالى: فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون وهذه الآية اما متعلقة بقوله اعبدوا أي اعبدوا الله ولا تجعلوا له اندادا أو بقوله الذي جعل لكم الارض فراشا فلا تجعلوا له اندادا، والند هو النظير والمثل أي لا تتخذوا معه آلهآخر ولا يوجد له سبحانه نظير ولا كفء، فكيف تجعلون له اندادا متعددة.

وقوله وأنتم تعلمون (جمله حاليه) أي كيف تعقلون ذلك وأنتم اصحاب الفطنةوالمعرفة وحسن التدبير ونضج العقول، وهذا تهكم بهم لأن صدور هذه السخافة من ذوقك العقول والفهم وأقبح واشنع وحذف مفعول (تعلمون) ايقاظا للأذهان في استنباط ذلك، ودلالة على علومهم

المتعددة أو تكون هذه الجملة من باب إيقاظ ضمائرهم واستثارة عواطفهم ليعودوا إلى رشدهم وينفكوا من اثر عدوهم

إثبات النبوة والميعاد

قال تعالى: وإن كنتم في ريب ممانزلنا على عبدنا فاتو بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين. وبشر الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا ن قبل واوتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون.

المعنى الاجمالي:

اثبت الله سبحانه إناالقرآن كلامه يتحدى العرب أن شكوا في ذلك أنيأتوا بمثل اقصر سورة منه وهم أهلالبلاغة وفرسان الفصاحة ويستعينوا في ذلك بمن شاءوا من اعوانهم والهتهمفلم يقدروا على ذلكفأثبت الله سبحانه وعجزهم ثم اكد ان هذا الامر بكونهم لن يستطيع ذلك ابدا الابدين وهذا من أخبار الغيب التي بأن صدقها فلم نسمع بأحد فعل ذلك منذ نزول القران إلى الآن لذلك هددهم الله سبحانه أن يذعنوا للحقبعد ظهوره وينفكوا من أسر العناد حتى لا يتعرضوا لنار عظيمة توقد الناس والحجارة ثم ثني بالترهيب والترغيب فبشر من آمن بالحق والتزم الطاعات بجنات ملتفة الأشجار سارحة الأنهار فيها كل متع الدنيا

ولكن الطعم والمذاق مختلف لأنه من اعداد الباري سبحانه خالدين فيها ولهم أزواج مطهرات من كل أذى.

مناسبة الآيات لما قبلها:

ذكر الله سبحانه في الآياتالسابقة الدلالة على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعلمه وقدرته وهو أصلإيمان الأول ثم تبع ذلك بعرض أصول الإيمانالأخرى فقرر الإيمانبالنبوةبإثباتإعجازالقرآن ويتبع ذلك الإيمان بما اخبر به من الميعاد والعقاب والثواب النار والجنة.

تطيل الآيات:

قال تعالى وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله (الريب الشك ممانزلنا أي في شك من أنالقرآن تنزيل من عند الله سبحانه وعبر بنون العظمةللدلالة على تعظيمالنازل والمنزل سبحانه. عبدنا سماه بأحسن الأسماء لأنالعبادة هي أشرف الخصال فالله سبحانه وتعالى نسبه إلى عباده وأهله تعظيما له صلى الله عليه وسلم أنهأعبد الناس. فاتوا بسوره من مثله) جواب شرط وهو امر لهم بالإتيان بسوره ومعناه التعجيز لأنه علم بعدمقدرتهم.

والسورة اما من سور فالواو أصلية فتكون بمعنى طائفة محدودة من القران كسور البلد. أو لأنهامحتوية على فنون العلم بمعنى الرتبةلأنها تعطي صاحبها رفعة أو تكون من سوربالهمزة ومعناه البقية والفضلة. كسور الهرة أي بقية شربها فالسورة قطعة من القرآن

من مثله من لابتداء الغاية والهاء في مثله أما تعود إلى القرآن أي فاتوا بسوره من ما هو على صفه في الفصاحة وحسن النظم فهو من نفس كلامكم ولغتكم أو تعود الهاء على النبي صلى الله عليه وسلم أي هليقدر بشر مثله امي لا يقرا ولا يكتب ان يأتي بمثل ما جاء به.

والراجح عود الضمير إلى القرآن لأمور:

يؤيد ذلك نظير هذه الآية من آياتالقرآنالأخرى كقوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله تعالى على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله فصرحت بأن التحدي في الاتيان بمثل القرآن.

وسياق الآيات يؤيد ذلك فان ارتيابهم وقع في القرآن المنزل لا في المنزل عليه وان كنتم في ريب مما نزلنا وأكد ذلك قوله تعالى وادعواشهدائكم فلا معنى لتجمعهم وتناصرهم فإن كانالمطلوب أنيأتي بشر مثل محمد صلى الله عليه وسلم ويقتضي ذلك كون الجميع عاجز عنه الأمي وغيره.

قصد بالتحدي أنيأتيأمي مثله صلى الله عليه وسلم فيه إشارة إلى نوع من النقص إليه صلى الله عليه وسلم وهو المنزل عن ذلك بخلاف كون التحدي بالقران يظهر به كماله وعظمته. بالإضافة إلى أنه قد يفهم بالإشارة انه ممكن للعالم القارئ الكاتب

قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين وادعوا بمعنى استعينوا بمعونة اعوانكم على ذلك.

الشهداء بمعنى الشاهد على الشيء لغيره وبمعنى المشاهد للشيء ومعنى شهدائكم اما الهتكم الذين تدعونهم وتعبدونهم من دون الله ليعاونكم أو يشهدوا لكم بذلك ان كانوا فعلا آلهة أو يقصد به اعوانكم من البشر أي من ذوي العلم والفهم وكل ذلك من باب التعجيز والتبكيت لهم انهم لا يقدرون على ذلك حتى ولو جمعوا كل ما في الدنيا قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القران لا يأتونبمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ثم أكد الله سبحانه عجزهم واخبار بعدم قدرتهم في مستقبل الزمان اثباتا لمعجزة القرآن من ناحية ببيان عدم قدرتهم وتسجيلا لغيب كما أخبر فقال تعالى فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، وهذا من باب الدعوة لهم بأن يستسلموا للحق ويحذروا النار بالعناد والباطل وهو كذلك تسجيل بعجزهم عن الاتيان بمثله في الحاضر والمستقبل الدائم إلى يوم القيامة فإن (لن) لتأكيد المستقبل وعبر عن عدم الاتيان بسورة بقوله (لن تفعلوا) من باب الايجاز واختصار اللفظ فالفعل يجري مجرى الكناية عن الكلام الكثير.

وهذه الآية دلت على إعجاز القرآن بعدة وجوه:

الأول:ما نعلمه بالتواتر من ان العرب كانوا في غاية العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم وقت إرساله وأنهم في غاية الحرص على أبطال دعوته التي فرقت جمعهم وقد بذلوا في سبيل ذلك الأنفس والأولاد والأموال فإذا كان حالهم

كذلك انضاف اليه تقريعهموتحديهم بعدم استطاعتهم على تأليف مثل أقصر سوره منه في الحال ولا الاستقبال ولو اجتمعوا على ذلك جميعا مع كونهم اصحاب البلاغة وارباب القول والفصاحة.كل ذلك يؤدي على أنهملو قدروا على الإتيان لفعلوا وحيث أنهم لم يفعلوا وعدلوا إلى الحروب والعناد. وبذل المهج والاموال في دفعه فلو كانوا قادرين على المعارضة بأقصر سورة لكن أهون عليهم كثيرا أو ابلغ في الحجة أو اشد تأثيرا. فقد تبت اعجازه وكونه لا يستطاع لأنه كلام الخالق فكيف يشبه كلامه كلام المخلوقين!

الثاني أنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن مقاطعا بكونه معجزا وأنهم ولا يقدرون عليه لما قطع وجزم بذلك لأنهم لو جاءوا بما طلب لظهر كذبه وابطلت نبوته صلى الله عليه وسلم فلما جزم بذلك دل على أنه كان قاطعا في صدق دعواه واعجازه.

الثالث وما يؤكد اعجازه وصدق دعوةأن القدر أنأخبر بالغيب بأنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل وقد وقع وظهر صدق ذلك منذ نزوله إلى الآن لم توجد معارضة له. مع كثرة المعادين له في كل وقت وحرصهم على وئده واخفاء نوره وهديه. وهذا من أكبر الدلائل على اعجازه وصدقه صلى الله عليه وسلم في دعوته وكونه نبيا قبل الله سبحانه وتعالى.

واما وجوه اعجاز يخفف متعددة منها:

١- النظم والتأليف المخالف لكل نظم عند العرب مع الجزالة في كل ألفاظه وآياته وسوره على السواء، وهذا ما يميزه عن سائر كلام البشر.

٢- الإخبار عن أمور الدنيا منذ نشأتها إلى وقت نزله، ووقع ذلك من رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يجالس العلماء، ومع ذلك أخبر بقصة خلق الكون، ثم قصص كل نبي إلى غير ذلك من أحداث.

٣- وفاء القرآن بكل ما وعد وبشر فصدق في كل ذلك كقوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وقد حدث، وغير ذلك من وعود كثيرة مطلقه ومقيده وقعت كما أخبر.

٤- الإخبار بغيوب لا يمكن أن يطلع عليها إلا بالوحي، كغلبة الروم للفرس، ودخول المسجد الحرام وغير ذلك.

٥- فصاحتهفي كل أغراضه وأقسامه في الوعد والوعيد، والوعظ وفي الأخبار والقصص، وفي الأوامر والنواهي، وفي والأحكام والشرائع والعقائد وهكذا.

٦- التناسب عدم الاختلاف في كل أخباره وأغراضه: (لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً)

٧- كونه أصلا لكل العلوم والفنون. فمنه يؤخذ علم اللغة، والفقه، والأصول والأخلاق والمواعظ، وكذلك العلوم الحديثة بفروعها المختلفة.

٨- تأثيره في القلوب والعقول عمد سماعه بما يشبه فعل السحر،وأن قارئه لا يمل وسامعه لا يكل إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز المتعددة التي أخبر عنها العلماء ومنها ما زال مطويا في حيز الكتمان إلى أن يأذن الله بكشفه لمن شاء.

وبعد ظهور إعجازه وبيان عجزهم هدد سبحانه وأوعد من لزم العناد وترك باب التسليم والإذعان فقال تعالى:

- (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)

- (فاتقوا النار) جواب للشرط، وكان الأولى أن يقول: (فإن لم تفعلوا فاتركوا العناد واذعنوا للحق)، ولكنه كنى عن ذلك بقوله: (فاتقوا النار)، وهذا من الإيجاز في الكلام لأن من عائد فقد تعرض لعذاب النار، وفيه كذلك تهويل وتشديد في شأن العناد لأن النار تنوب عنه وتترتب عليه، وقد هول صورة هذه النار بأن جعل حطبها هم الناس والحجارة.

-والوقود: بفتح الواو هو الحطب الذي توقد به النار، وبالضم هو المصدر ومعناه: التوقد واللهيب.

-والحجارة: قيل هي الأصنامالتي عبدوها مع الله سبحانه فإنها تحرق معهم وتكون سبب لدوام عذابهم زيادة في ألمهم وحسرتهم علي عبادتهم لها في الدنيا. وما يؤيد ذلك قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم). وقيل: هي حجارة معينة تسمى حجارة الكبريت،

وهي أشد الأشياء وأشنعه رائحة، والأولي عموم الحجارة لأنه لا دليل علي كونها تعنى هذا النوع فقط، والعموم أكثر دلالة على تعظيم

صفة النار لكونها تشتعل وتتقد بالحجارة العادية التي هي سبب لإطفائها وخمودها.

وقرن سبحانه في الإحراق بين الناس والأصنام، لأنهم نحتوها في الدنيا وعبدوهامن دون الله سبحانه. وقدم سبحانه الناس في الإحراق على الحجارة لأنهم العقلاء الذين يدركون شدة الحرارة، أو لكونهم أكثر إيقادا واشتعالا لما فيهم من الجلود والشحوم والشعور والعظام، أو لأن ذلك أعظم في التخويف فإنك إذا رأيت إنسانا يحرق الشعر بدنك، وذهب عقلك بخلاف الحجر.

وقوله تعالى: (أعدت للكافرين)، لا يدل على أن النار مخصوصة لهم فقط للكفار ولا يدخلها العصاة وأصحاب الكبائر الذين لم يتب الله عليهم. لأن الأخبار الصحيحة دلت على إدخال طائفة من العصاة النار لفترة، ولذلك يحتمل معنى الآية أقوال:

-أنه نص على الكفار لأنهم أغلب أهلها بخلاف غيرهم من عصاة المؤمنين.

- أو لأن من أخرج منها بعد عذابه من العصاة لم تكن معدة له.

ويدل قوله (أعدت)، كذلك على أن النار والجنة مخلوقتان الآن موجدتان على خلاف لبعض المعتزلة وغيرهم من المبتدعة، والدليل على ذلك أمور:

هذه الآية: (أعدت للكافرين)

ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة فقال: تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهودي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)

وما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: احتجت النار والجنة فقالت: هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت: هذه يدخلني الضعفاء والمساكين. فقال الله لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وقال لهذه أنت رحمتي ارحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكم ملئوها) وكذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أري الجنة والنار في صلاه الكسوف، ورآهما في اسرائه ودخل الجنة كما جاءت بذلك الأحاديث(مشار في الهامش إلى: المقصود بالأحاديث أنظر القرطبي ١/٢٠٥.)

إثبات المعاد والعقاب والثواب

قال تعالى: (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة...)

وقال تعالى: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات...)

مناسبة الآيات لما قبلها..

بعد أن اثبت الله سبحانه في الآيات السابقة التوحيد والنبوة

والقرآن تكلم بعد ذلك عن معاد الناس في الآخرة، وبين عقاب الكافر وثواب المطيع. وبدأ بذكر حال الكفار وشدة عذابهم وفظاعته، ثم عقب بذكر مقابلتهم وهم أهل الجنة وبالغ في وصف متعهم وتنعمهم، وتلك عادة القرآن دائما لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللطف والعنف، فإن من الناس من يتأثر بالتهديد والوعيد فيعود إلى خالقه ومنهم من يجذب بالترغيب واللطف، ولذلك ذكر حال الاشقياء ثم تبعه ببيان حال السعداء وبالعكس، ولذلك سمي القرآن بمثان.

تحليل الآيات:

قوله تعالى: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات...)

(البشارة): اول خبر يرد على الانسان، وسمي بشارة لأنه يؤثر على البشرة أي الجلد، فإن كان خبرا أثر السرور والانبساط، وإن شرا أثر اجتماع الجلد والغم ومنه يقال للجلد: بشره، وتباشير الصبح: اوائل ضوئه، فالبشارة على ذلك تشمل الخير والشر. وقيل: الشارة للخبر السار فقط وأما إذا استعملت في الشر فمن باب المجاز للدلالة على

الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزئ به كقوله تعالى: (فبشرهم بعذاب أليم)

والأمر في (بشر) إما للرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه صاحب الدعوة ولان البشارة من عظيم تكون عظيمة، أو الأمر لسائر الأمه ويدل أيضا على عظمه المأمور به فاستحق ان يبشر به كل الناس

وجمعه بين:(آمنوا وعملوا الصالحات) يدل على أن لفظ الإيمان لا يشمل عمل الصالحات به لأنه عُطف عليه، ويدل كذلك على انه لا بد من دخول الجنة من الايمان اولا بالله سبحانه وبعقائد الاسلام، ثم بعمل الطاعات واجتناب المعاصي.

والتعبير عن ذلك بالفعل الماضي (آمنوا وعملوا) يفيد ان مستحق التبشير والجنة هو فعلا من عمل ذلك وتحقق به.

(والصالحات) الالف واللام للإشارة إلى جنس الطاعات لا إلى عمومها فليست (ال) هنا للعموم لأنه لا يمكن لأي إنسان عمل جميع الصالحات وقد فسر (الصالحات) هنا بأنواع متعددة من الطاعات وهي تعم كل ذلك، فهي كل عمل صالح أريد به وجه الله تعالى.

قوله تعالى: (أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار)، وهذه الجملة من إن واسمها وخبرها المفعول الثاني(لبشر)، فهو متعدي وجملة (تجري) صفه (لجنات).

جنات: جمع جنة، وهي البستان الذي سترت اشجاره أرضه وكل شيء ستر شيئا قد أجنه، ولذلك سمي الجن جنا لاستتارهم عن البشر ومن ذلك الجنين لأنه في بطن امه، وجن الليل إذا ستر الكون. وجمع الجنة هنا يدل على انها مشتملة على جنات كثيرة وهي مراتب حسب اعمال الداخلين إليها، فالرسول صلى الله عليه وسلم في الفردوس الأعلى.

ثم وصف الجنة بعد ذلك بقوله: (تجري من تحتها الأنهار)، والنهر: هو المجرى الواسع أكبر من الجدول ودون البحر، وأسند الجري إلى

الأنهار والذي يجري هو الماء من باب المجازليدل على استمرار المياه وكثرة جريها كأن النهر هو الذي يجري وليس الماء. و(ال) في الأنهار للدلالة على الجنس، وقيل: للعهد لأن الله عرف أنهار الجنة بقوله تعالى: (فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسلمصفى)

ومعنى (تجري من تحتها) أي الماء يجري من تحت أشجارها ومساكنها لا من تحت الأرض كما هو الظاهر، لأن جمالها يقتضي رؤية أهلها الأنهار السارحة الجارية خلالها، ولذلك دائما يقترن وصف الجنة بأنهارها الجارية لأنه

أعظم للنظر وأبهج للنفوس وأهدأ للمشاعر عندما يكون البستان مظلل بأشجاره وأنهاره سارحة بأصواتها الخلابة، فما بالك إذا كانت تلك الأنهار من الماء، وأنهار من اللبن،ومن عسل، وأنهار من خمر، ثم تبلغ الروعة قمتها إذا كانت هذه الأنهار في الجنة تجري على ارضها بغير أخدود وشواطئ، وانضباطها في سيرها بقدرة الباري سبحانه كما جاء في الأثر، فتنساب على أرض الجنة المصممة من الدر والياقوت وترابها من المسك، فيسمع لصوت الأنهار خرير ينعش النفوس ويضاعف اللذة.

ثم تواصل الآية عرض متعأهل الجنة من الطعام فقال تعالى:

(كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل، وأتوا به متشابها). أي كلما يؤتي إليهم بطعام في الجنة يقولوا:

(هذا الذي رزقنا من قبل) أي هذا مثل ما كنا نطعمه من قبل، فشبهوا طعام الجنة بطعامهم السابق ويحمل ذلك أمورا:

تشابه طعام العشاء مع طعام الغداء في الجنة في الاسم واللون دون الطعم

أو يقصدون تشابه طعام الجنة مع طعامهم في الدنيا في الاسماء أيضا فقط دون الطعموقيل: أن ثمر الجنة حين يقطعونه يخلقه ثمر آخر مثله في الحال فإذا رأىأهل الجنة ذلك قالوا هذا القول ولعل القول الثاني هو الأولي لأنهم يكررون قولهم عند كل مره، والجنة لم يسبق لهم فيها طعام عند قولهم أول مرة ذلك. بل السابق كان في الدنيا. وكذلك السياق يزيد ذلك فإن الله سبحانهخلق للجنة أنهارا وأزواجا كما هو موجود في الدنيا، وإن

كان التشابه في الاسم فقط دون الحقائق والصفات، فشتان بين أنهار الجنة وأزواجها ونظائرها في الدنيا

(وكلما) تفيد تكرار تعجبهم وترديدهم هذا القول عن كل ثمره مما يدل على تمام الفضيلة، وتناهي الاستغراب لهذا التفاوت في الطعم بين الثمرتين مع تشابهما.

ثم صدقهم الله سبحانه في ظنهم فقال تعالى:(وأتوا به متشابها)، أي يشبه بعضه بعضا والله سبحانه جعل طعام الجنة يشبه أسماء ما في الدنيا ولم يجعله صنفاآخر، لأن الانسان يأنس ويسعد بالمألوف له بخلاف مالا يعرفه ولا يألفه، فإذا كان الثمر مثل ما يعرفه كالتفاح

والرمان وغير، ثم رأى له فضل ومزية عظيمة في الصفات والشكل والطعم، ازداد عجبه واغتباطه، وطال فرحه وسعادته، وبان له فضل ما انعم عليه.

وبعد بيان سكن أهل الجنة، وطعامهم، أكمل متعهم بزواجهم بالطاهرات فقال: (ولهم فيها أزواج مطهرة)

وصف الزوجات في الدنيا بأنهن مطهرات، ويشمل هذا الوصف صفاتهن الحسيه كما قال مجاهد: لايبلن، ولايتغوطن، ولايلدن، ولايحضن، ولا يبصقن. ويشمل كذلك الأوصاف المعنوية مثل طهارتهن من الأخلاق الخبيثة وسائر العيوب كالكيد والغيرة، والغل والنظر إلى غير أزواجهن. ولفظ(مطهرة) أبلغ من (طاهرة) لأنه يشعر بأن مطهر طهرهن وزينهن وليس ذلك إلا الله سبحانه الذي يريد أن يسعد أهل الجنة بكل ميزة ومتعة. فمن طهره الله سبحانه كان في غاية النظافة والوضاءة.

ثم ختم سبحانه وصفه لنعيم اهل الجنة بكونه دائما أبدا لا ينقطع بقوله تعالى:(وهم فيها خالدون)

والخالد: المكث في الحياة أو الملك أو المكان مدة طويلة، كقولهم: خلد بالمكان، أو أخلد إلى كذا، أو حبس فلان حبسا مخلدا. وقد يقصد بالخلود البقاء والدوام بلا انتهاء كقوله تعالى(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد)، ومعلوم أن بعض البشر عمر طويلا جدا)

والله سبحانه أعقب وصف متعهم في الجنة بأنها خالدة ابدا، وذلك لأن هذه الملاذ لا تبلغ درجة الكمال مع توقع زوالها والخوف من بقائها

كمتع الدنيا الكثيرة، ولذلك لا تكون كاملة مهما عظمت لأن صاحبها خائف من زوالها بالموت أو الضياع أو المرض أو القيامة. بخلاف متع الآخرة فإنها دائمة لا خوف من زوالها أبدا.

وترتيب متع الجنة عجيب، فإنه لما كانت مجامع لذات الإنسان في المسكن البهي، والمطعم الشهي، والزوجة الجميلة، ثم دوام كل ذلك، فقد ذكر الله سبحانه متع الجنةوفق ذلك، فبدأ بالمسكن لأن به الاستقرار في دار المقام، وثنى بالطعام لأن به قوام الإنسان، ثم بعد ذلك الزوجات لأن معهن تمام المتعة والوئام، ثم أخبر بخلود كل هذه المتع بلا انقطاع، فتأملهذا الترتيب العجيب، واسال مولاك من فضله المزيد.

شبه الكفار في امثال القرآن والرد عليها

قال تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما امر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون).

لما ضرب الله الأمثال في القرآن بالذباب، والعنكبوت والمستوقد نارا، والمطر وغير، عاب ذلك الكفار لأنه يقدح في فصاحته، فرد الله عليهم مبينا أنه لا يخشى من ضرب الامثال بأي شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا طالما أنه موافق ومناسب للحالة المضروب لها مثلا، والمؤمنون لما اتصفوا به من النظر السديد وشرح الصدور فقد فهموا ذلك وضرب

الله بالأمثال إيمانا وثباتا، وأما الكفار فتشككوا في ذلك، واتهموا كلام الله، فزادتهم هذه الأمثال ضلالا وكفرا بسبب عدم إذعانهم لكلام الله وطاعته، ونقضهم لعهوده عليهم، ونقضهم لكل ما أمر الله به أن يوصل وإفسادهم في الارض بالباطل فترتب على ذلك خسارتهم للدنيا والآخرة.

مناسبه الآية لما قبلها:

لما سبق من آيات بين الله سبحانه فيها أدلة التوحيد والنبوة والمعاد وغيره من أصول الإسلام، فظهر بذلك صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته.

ناسب بعد ذلك عرض ما يعن الكفار شبهات في القرآن في دعوته فرد الله عليها مفندا ومبطلا

تحليل الآيات:

قوله تعالى: (ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها):

سبب نزول الآية:

نقل المفسرون لها ثلاثة اسباب:

الأول:

نزلت في اليهود، عن الحسن وقتاده قالا: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية.

الثاني:

نزلت في المنافقين لما ضرب الله لهم مثلا بالمستوقد نارا وبالصيب كما مضي في الآيات، وهو قول السدي ومجاهد.

الثالث:

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في الكفار.

ورجع الطبري لنزولها في المنافقين لمناسبة الآيات لما قبلها، لان ما مضي من أمثال كان عن المنافقين فاللائق يكون هذا الإعراض منهم

وقيل: الراجح نزولها في المشركين لأن البعوضة يماثلها في الحقارة الذباب والعنكبوت وهما أمثال المشركين مع ألهتهم، وللنص على الكفار في الآية.

وقيل: الراجح نزولها في المشركين واليهود لأن الله لخبر عن استهزائهم بالأمثال عندما ذكر عده اصحاب النار فقال تعالى في سورة المدثر وهي مكية:(وليقوا الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلا) (مشار في الهامش إلى الآية انظر الرازي ٢/١٤٥.)

وقيل: الكل صواب وهو محتمل، والدليل على ذلك أمور:

صحة دليل كل قول من الأقوال السابقة.

أن هذه الطوائف الثلاثة كانوا متوافقين ومتجمعين على إيزاء الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالقرآن، ولذلك يتوقع من جميعهم هذا القول، ومما رجح ذلك القفال، وجوز أيضا أن تكون الآيةنازلة دون سبب لأن معناها مفيد في نفسه.

قوله تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها):

الاستحياء في اللغة: تغير وانكساريعتريالإنسانبسبب فعله ما يعاب عليه ويذم. ولذلك يقال: هلك الإنسان حياء، أو ذاب حياء من شدة إحراجه.

وهذا المعنىلا يمكن وقوعه من الله سبحانه لأنه صفه تخص المخلوقات.

ولكن ثبت نسبته إلى الله سبحانه في ظاهر هذه الآية. وكذلك جاء في الحديث عن سلمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله حي كريم يستحى إذا رفع العبد إليه يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا) ولما نسبه إلى نفسه سبحانه جاز وصفه به، ولكن اختلف العلماء في معناه لأنه يستحيل عقلا معناه اللغوي في حقه سبحانه.

- قيل: هو صفة له سبحانه ينبغي أن ننسبها له ولا نتعرض لكيفية معناها كغيرها من الصفات، فكما أنه له سمع وبصر يليق بذاته فكذلك صفة الحياء، وهذا منهج السلف في معنى الصفات والأسماء.

- وقيل: ينبغي أن يأول هذه الصفة لأنه استحال عقلا نسبتها إلى الله سبحانه بمعناها اللغوي، واختلفوا في تأويلها على أقوال:

- أن (استحى) هنا بمعنى (ترك)، لأن الإنسان إذا استحى من شيء تركه، فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب، وهو مجاز مشهور.

وقد بين الرازي رحمه الله أن كل صفة تختص بالإجسام كالحياء، والخوف، والغضب، يكون لها بداية ونهاية، فوصف الله بها يكون محمولا على نهاية أعراض الصفة. فصفة الحياء أول أعراضها ما يصاب الجسم من تغير وانكسار، ونهايتها ترك الإنسان لما يكون سببا لحيائه، فالحياء في حق الله سبحانه هو ترك الفعل، وكذلك الغضب له بداية وهي غليان دم القلب، وغلبة شهوة الانتقام، ونهايته هو إنزال العقاب بالمغضوب عليه وهو ما يمكن نسبته إلى الله سبحانه.

- وقيل: يستحى هنا بمعنى يخشى، كقوله تعالى عن الرسول صلى الله عليه وسلم لم لما كتم خبر تزويجه من زينب رضى الله عنها: وتخشى الناس والله أحق (أن تخشاه)، أي تستحي من الناس، فمعنى (لا يستحي) أي لا يخشى.

- وقيل: معناها: لا يمتنع أن يضرب المثل بذلك

- وقيل: هذا القول من كلام الكفار، والله سبحانه كرره على سبيل إطباق الجواب على السؤال، وهو فن بديع من الكلام كقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها).

والأولى في ذلك قول السلف، فلا نتعرض لتأويل صفاته سبحانه لأنه لا يعلم كنه ذاته ولا صفاته إلا هو سبحانه، والبشر عاجزون عن ذلك، ولذلك ننسب إليه ما أثبت لنفسه من الصفات والأسماء حتى لا تقع في هاوية التعطيل لها والإنكار لكلامه، ولا نتعرض لمعناها بالتأويل والتكييف مما تعجز عنه عقولنا ولا يمكن تصوره لخيالنا.

وقوله: (أن يضرب مثلا ما بعوضة)، ضرب المثل واعتماده ونكره، أي أن الله سبحانه لا يمتنع من ضرب الأمثال بالبعوضة أو ما هو أقل منها إذا كان موافقا ومناسبا للمضروب له في تصوير معناها.

والبعوضة: هي البق، ومشتقة من (بعض) بمعنى قطع، ومنه قولهم: وقد بعضته تبعيضا أي جزأته، وسميت بذلك لصغرها.

إعراب الآية:

(أن يضرب): في محل نصب مفعول ل (يستحى).

(مثلا): مفعول ب (يضرب).

(ما): إما زائد، أو تكون إبهامية تلي الاسم النكرة لتزيد من عمومه وشيوعه، كقولهم: (أعطني كتابا ما). إعرابها هنا بدلا من (مثلا).

(بعوضة): لها عدة أوجه من الأعراب:

-إما صفة ل(ما) منصوبة.

- أو عطف بيان أو بدل من (مثلا): إذا كانت (ما) زائدة.

- أو تكون مفعول به(يضرب)،و(مثلا) على هذا الوجه تعرب حالا مقدما.

- أو تكون مفعولا ثانيا ل(يضرب) بناء على أنه بمعنى (جمل) ينصب مفعولين.

وقوله(فما فوقها): يحتمل معنيين:

الأول:

يضرب المثل بالبعوضة وما فوقها في الكبر والحجم كالحمار والكلب، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

الثاني:

فما فوقها في الصغر، كما تقول: فلان أنزل الناس، فيقال لك: هو فوق ذلك، أي أكثر نذالة وخسة.

ورجح أبو حيان الأول لأن (فوق) في ظاهر اللغة تفيد العلو.

ورجح الرازي الثاني لأمور:

-لأن المقصود من هذا التمثيل تحقير الأوثان، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المعنى أكمل.

-أن مقصود الآية كون الله سبحانه لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير.

-أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاععلى أسراره أصعب، فإذا كان نهاية في الصغر ل يحط به علما إلا الله سبحانه، فيكون في

التمثيل به دلالة علي كمال حكمته سبحانه وتعالى، وإشارة إلى آياته العجيبة.

وضرب المثل لأصنامهم واعتقادهم فيها بالذباب والعنكبوت والبعوضة وغير ذلك في غاية الحسن والبلاغة، واعتراضهم على المثل بهذه المحقرات إما يرجع إلى استكبارهم عن الإذعان للقرآن والاعتراف

بفصاحته، أو يرجع إلى انتكاس عقولهم، وسواد عقولهم، وانطماس بصائرهم فلم يفهموا حكمته سبحانه ومقصوده من وراء المثل، ويظهر حسن هذه الأمثال وإصابتها لعين الحق وتصوير المعنى من وجوه:

-أن التمثيل بالذباب والبعوض والعنكبوت وما يجري وراه أروع ما يكون من التمثيل والتشبيه، لأن ما جُعلت مثلا له في غاية ما يكون من الحقارة والخسة، وضعف القوة، وهي أصنامهم واعتمادهم عليها وعبادتهم لها، فلو شبههم بغير ذلك ما حسن موقع التشبيه والتمثيل، إذ لا يشبه الشيء إلا ما يمثله، فأصنامهم لا تستطيع أن تدفع عن نفسها حتى ضرر الذباب، فكيف تدفع عنهم وتحميهم من عقاب الله تعالى! واعتمادهم عليها كمن يتحصن بنسيج العنكبوت! فهل هناك أبلغ وأروع في بيان حالهم من هذا المثل؟

-خلق الله سبحانه سواء الصغير أو الكبير بمنزلة واحدة، فإنه سبحانه أحكم وأتقن الجميع، والآيات والعجائب تظهر في كليهما، وإن كان الكل بمنزلة واحدة فلا يكون الكبير أولي وأعجب من الصغير بل

المعتبر في ذلك ما يليق بالقصة والمثل، فالذباب والبعوض هنا أحسن موقعا وملائمة من الجمل والفيل قوله تعالى: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ووأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا)

فالأمثال يفهم حكمتها ومعناها المؤمنون، وتزيدهم ثباتا وهداية، والكفار عكس ذلك تزيدهم ضلالا وعنادا فيستهزؤون بكلام الله سبحانه وتعالى.

وتصدر الجملتين ب (أما) يفيد تأكيد ثبات المؤمنين بالأمثال وزيادة إيمانهم، وذم الكفار بزيادة ضلالهم وفسقهم.

ومن دقة الألفاظ القرآنية تعبيره عن ثبات المؤمنين في الهدى بقوله:

(يعلمون أنه الحق) وأما في حق الكنار (يقولون ماذا اراد الله) لأن كلامهم غير صادر عن يقين وبرهان، فهو مجرد قول باللسان، والاستفهام المقصود به الاستهزاء والشك

ثم أجاب الله سبحانه عن استهزائهم وسؤالهم السابق (ماذا أراد الله بهذا مثلا) فقال تعالى:

(يهدي به كثيرا ويضل به كثيرا).

وهذه الآية كالتفسير والبيان للكلام السابق، فهذه الأمثال التي ضربها الله تعالى استفاد منها واهتدى بها كثير من الناس، وايضا كانت سببا لضلال وكفر كثير من الناس.

والله سبحانه اسند الهدى والضلال إليه فهو الذي يهدي من كتب له الهدايةوالإيمان، ويضل من كتب له الشقاء والكفر بسبب عمله وإصراره على الباطل

واما المعتزلة فلم ينسبوا الضلال إلى الله سبحانه أنه قبح والله منزه عنهوجعلوه من فعل الإنسان، وأولوا الضلال هنا إما بان الله سماهم ضلال، أو أنهمجاز لأن تلك الأمثال التي ضربها الله كانت سببا لضلالهم فنسب لنلك الضلال إليه سبحانهوالصواب أن الله سبحانه بيده وحده

الهدى والضلال، وانه لا يسال عما يفعل وإضلاله للناس عدل منه سبحانه، لأنهم استحقوه بأعمالهم وأقوالهمالفاسدة كما قال تعالى: (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم). ولما تأويل المعتزل للضلال فلا مصوغ له، ولا تؤيده اللغة ولا الشرع.

ثم بين الله سبحانه سبب ضلالهم وعدم إيمانهم وفهمهم لأمثال الله فقال تعالى: (وما يضل به إلا الفاسقين)

والفسق: في اللغة معناه الخروج، يقال فسقت الرطبة: إذا خرجت عنقشرها. وفي الشرع: هو الخروج عن طاعة الله تعالى، وهو لفظ عام يطلقعلى الكافر الذي عمل أو قال ما يكفر به، ويطلق أيضا على المسلم إذا ارتكبكبيرة لو ذنبا لا يبلغ به حد الكافروالسبب الثاني لضلالهم قوله تعالى:

(الذين ينقضون عهد الله من بعده مىثاقه)

وهذه الآية يصح أن تقرا مبتدأه، ويصح وصلها فتكون صفة للفاسقين وهي أولى.

والنفض: هو إفساد ما ابرمته واحكمته من بناء أو حبل أو امر معنوي كالعهد والوعد.

والوثائق: هو الشد في العقد، لو لعهد المؤكد باليمين، وكني به هنا عن الالتزام والقبول للعهد.

واختلف المفسرون في المقصود بالعهد الذي نقضوه:

قيل: هو وصية الله سبحانه إلى خلقه بطاعته فيما أمر ونهي في كتبه وعلى السنة رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقيل: عني به الميثاق الذي أخذه الله على كل الناس وهم في ظهر آدم عليه السلام حين اخرجهم أحياء وأقروا به كما قال تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكمقالوا بلى) وقيل: هو ما أخذه على اليهود من العمل بالتوراة وبيان امر محمد صلى الله عليه وسلم فيها واتباعه حينيبعث.

والراجح هو القول الأول لأنه يدخل ضمنه الأقوال الأخرى ولما فيه منالعموم لكل البشر مسلمهم وكافرهم أو ذميمهم، ورجع الطبري أنها في منافقي أهل الكتاب لأن الآيات قبل ذلك تتحدث عنهم، وبعد قصة ادم عليه السلام يعودايضا الحديث عنهم.

وفي الآية دليل على وجوب الوفاء بكل عهد والتزامه وعنم نقضه، واكد ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود)، والعهد والعقد عام بىن الإنسان وخالقه، أو بين المسلم وغير المسلم، وحتى مع الكافر لقوله تعالى فيحالة نكث العهد في الحرب مع الكفار: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)، أي أعلمهم بنقض عهدك معهم إذا خفت من خيانتهم له. و(من)في قوله: (من بعد ميثاقه) تدل على ابتداء الغاية، وكأنهم بمجرد إبرام العقدنقضوه في نفس الوقت، فهي ليست زائدة كما يقول البعض.

والصفحة الثالثة لمن استهزئ بالأمثال ولم يفهم مراميها هي قوله تعالى:

(والذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل) نكروا في معنى ذلك

امورا:

قطعهم للرحم والقرابة.

قطعهم لرسالة الرسل فامنوا ببعض دون بعض.

وقيل قطعهم للدين بالإيمان لسانا دون العمل والقلب.

والأولى العموم فأراد سبحانه من ذلك كل ما امر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه، فلا دليل في الآية على خصوص امر معين اقتصر قطعهم عليه.

وبناء (يوصل) للمجهول يدل على شمول قطعهم لكل خير.

ثم وصفهم بأمر آخر وهو قوله تعالى:

(ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون):

وإفسادهم للأرض يعم كل أنواعه من إعانة الكفار على المؤمنين، وقطعهمللطريق في وجه المهاجرين ومعصيتهم الله سبحانه بعدم طاعته في امره ونهيه.

وقد تضمنت الآية عدة صور من الطباق وهو ذكر الشيء مع ضده فيزداد وضوحا كقوله تعالى: (فأما الذين آمنوا... وأما الذين كفروا)، وقوله(يصل ويهدي)وغير ذلك.

وترتيب صفاتهم بهذه الجمل الثلاث غاية في التوافق والحسن فإنه بدا بالأخص وهو نقض العهد، ثم القطع للخير، ثم الإفساد في الأرض وهو يشمل كل شيء.

وكذلك التعبير بالفعل المضارع في الأفعال: (ينقضون، يقطعون، يفسدونوعطف كل واحد على الأخر يدل على تجدد واستمرار هذه الأفعالاسيئة منهم، والإشعار بدوامها.

ثم عقب على ثمرات هذه الأخلاق القبيحة، فوصفهم بقوله تعالى:

(وأولئك هم الخاسرون):

الخاسر في اللغة: هو النقصان، فهم قد نقصوا حظوظهم من النعيم والشرف بتلك الأمور، ويشمل هذا الخسران اما نعيم الجنة، أو حسناتهم التي عملوها في الدنيا، وكذلك حظوظهم الدنيوية فالكافر والعاصي محرومان من السعادة في الدنيا، ومن لذة طاعة الله تعالى، وإطلاق (الخسر) يفيد كل شيء، والتعبير بالجملة الاسمية: (أولئك هم الخاسرون) يدل على ثبوت هذه الصفة وعدم تحولهم عنها.

التذكير بنعم اللّه تعالى.

نعمة الحياة.

قال تعالى: (كيف تكفرون باللّه وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون). المعنى الإجمالي:

يذكر اللّه عباده جميعا بنعمه ويحتج عليهم مبينا قدرته على كل شيء، فكيف يذكرون اللّه سبحانه أو يشركون معه غيره في العبادة، وهو المتفضل عليهم بخلقهم من العدم، ثم هو يميتهم بعد معاشهم، ثم يبعثهم بعد ذلك أحياء فيرجعون إلى خالقهم ليحاسبهم على ما قدموا.

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد ذكر أدلة التوحيد والنبوة والمعاد، انتقلت الآيات إلى تذكير الناس بنعم الله المتعددة، وهو نوع من الدعوة بالترغيب حتى يعظم الناس المنعم والمتفضل عليهم بأنواع النعم التي لا تحصى،وهو نفسها دليل وبرهان على عظمة اللّه سبحانه وقدرته المطلقة التي تجلت في خلق الإنسان من التراب، وخلق السماء والأرض وغير ذلك.

تحليل الآية:

(كيف تكفرون باللّه) سؤال خرج عن حقيقته إلى المجاز، فهو لا يحتاج إلى جواب ولكن معناه إما التقرير والتوبيخ، أو الإنكار والتعجب لكفرهم باللّه خالقهم من العدم ومسخر لهم السماء والأرض وما فيها. فالتعجب والإنكار لكفرهم يرجع إلى أمرين: الأول نعمه عليهم وأولها خلقهم من العدم، والثاني: ما في خلقهم من آيات وبراهينعلى كمال قدرته وعلمه سبحانه. والاستفهام ب (كيف) يدل على انكار الحال والصفة لفعل الكفر، وأما الاستفهام بالهمزة فهو إنكار لفعل الكفر فقط، والأول أبلغ

لأن إنكار الحال والصفة إنكار لذات الفعل بطريق الأولي، كأن هذا الفعل يستحيل وقوعه لأنه صفته مستحيلة الحدوث، فكيف يكفرون باللّهوآياته ظاهرة في الأنفس والأفاق! والإنكار جاء على صفة الخطاب بخلاف ما سبق فكان الحديث مع الغائب (فأما الذين آمنوا) وفائدة تنوع الأسلوب للتشويق، وللتأكيد من وصول الكلام كأنه شاهد سامع لما يقال.

وقوله تعالى: (كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم): نصت الآية على أن اللّه سبحانه أماتهم مرتين: الأولى وهم في أصلاب آبائهم فكانوا أمواتا، والأخرى بعد قضاء آجالهم في الدنيا. وأحياهم مرتين: الأولي بعد نفخ الروح فيهم، والثانية حين خروجهم من القبور للبعث والحساب. وبعض المفسرين أضاف حياة وموتا آخرين وهما ما حدث في عالم الذر وهم في ظهر أدم عليه السلام، أحياهم لأخذ العهد عليهم ثم آماتهم، وبعضهم أضاف حياة أخري في القبر للعذاب ثم يموتون (يشار في الهامش إلى: انظر البحر المحيط ١- ٢٠٩).

والراجح القول الأول لظاهر الآية، ولقوله تعالى على لسان الكفار:

(ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى رجوع من سبيل).

ولأن هذه المرات من الحياة والموت مشاهدة محسومة لا يمكن للكفار إنكارها بخلاف حياة الذر وحياة القبر فقد ثبتت بالسمع والدليل وليس بالمشاهدة والله اعلم.

وعطف الحياة الأولى على الموت الأول بالفاء: (كنتم أمواتا فأحياكم) لأن الحياة الأولي عقبت الموت بدون تراخ وفترة بينهما، وعطف الموت الآخر (بثم) لأنه متراخ بعد فترة الدنيا، وكذلك الحياة الثانية وهي البعث متراخية عن الموت بفترة إلى قيام الساعة.

وجملة: (وكنتم أمواتا فأحياكم)، حال أي كيف تكفرون رحالكم أنكم قد كنتم أمواتا فأحياكم، فحذف (قد)، ويكون قوله بعد ذلك: (ثم يميتكم ثم يحييكم) مستأنف كلام جديد. وذهب الزمخشري إلى أن المحذوف لفظ (قصة) أي وقسمتكم أنكم كنتم أمواتا فأحياكم... إلى نهاية الآية فجعل كل الآية حال، ورد ذلك أبوحيان واختار حذف (قد).

ثم ختم الله سبحانه الآية مهددا لهم ومرغبا في لقائه فقال:

(ثم إليه ترجعون):

والمرجع ليس لذاته سبحانه فإنه كان موجودا قبل خلق المكان والزمان، ولكن المعنى تعودون إلى جزائه، أو إلى الموضع الذي يتولى فيه الحكم بينكم وفي هذه الآية دلالة على امور متعددة منها:

- أنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الله سبحانه لأنه اسند ذلك إلى نفسه سبحانه (هو الذي احياكم ثم يميتكم...)

-تدل على صحة وقوع الحشر والبعث للحساب مع التنبيه على الدليل العقلي الذي يؤكد ذلك مع خبر الشرع، لأن خلقهم من العدم بأن صاروا أحياء أمر محسوس مشاهد حتى، الكفار سلموا بأنه سبحانه الخالق، وإذا ثبت ذلك دل على قدرته على الموت والبعث الآخر.

-تدل الآية على تكليف العباد بالطاعة وترك المعصية والدعوة بالترغيب والترهيب.

- تدل على وجوب الزهد في الدنيا لأن هذا الإنسان الذي خلقه من نطفة ثم صوره في أحسن صورة مكتمل البدن والعقل، وملكه الأموال والجاه والاولاد والقصور، هذا الإنسان نفسه سيغنى ويترك كل ذلك ويموت، وينساه الأهل ولا يزورونه.

نعمة خلق السماء والأرض وتسخير ما فيها

قال تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم لمستوي إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل خلق عليم).

المعنى الإجمالي ومناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن من سبحانه على الناس بخلقهم أولا من العدم وهو أعظم النعم، نكرهم بنعمه الأخرى فقد بسط لهم الأرض، ورفع السماء، وسخر ما فيهما لمنفعة الناس وراحتهم، ولتدلهم على عظمة الله وقدرته، فهو العليم بما ينفع وما يضر وعلمه شامل للعالم العلوي والسفلي.

تحليل الآية:

(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا)، خلق: ابتدع واوجد من العدم، وقوله (لكم) اللام هنا إما للسبب، أي خلقها لأجلكم وانتفاعكم، أو للتمليك والإباحة، فتقيد أن ما لم يحرمه الشرع فهو مباح لنا أو تدل على الاختصاص.

والتقاءنا بخلق الأرض والسماء يكون دينيا بالنظر إلى ما فيهما من عجائب الصنعة الدالة على القادر الحكيم، وكذلك ما في الأرض من شهوات ولذائذ، ومن أسباب الانس وفنون المطاعم والمشارب والفواكه والمراكب والنساء والمناظر الحسنة، وكل ذلك يدل على نظيرها في الجنة وما اعد فيها للطائعين، وبالمقابل ما فيها من مؤذيات ومكاره كالصواعق والأمراض

والسموم وانواع المخاوف يدل عليجنس ما اعد للكفار في النار. واما المنافع الدنيوية فظاهرة.

(ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات):

(ثم) اختلف العلماء بناء على العطف (بثم) المفيد للتراخي هل الأرض خلقت أولا أم السماء؟

قال فريق بخلق الأرض أولا ودليلهم:

ظاهر هذه الآية فقد قدم خلق الأرض، ثم عطف عليها خلق السماء(بثم) التي تفيد التراخي.

وأيد هذه الآية أية اخري في سورة فصلت: (قال أتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا... وقدر فيها أقواتها في اربعة ايام سواء للسائقين) وقال بعد ذلك: ثم (استوى إلى السماء وهي دخان).

– وأيد دلك أيضا العقل فإن البناء يبدأ أولا بأسفله وهي كالأساس له ثم اعلاه

– وقال فريق آخر بخلق السماء أولا ودليلهم:

قوله تعالى في سورة النازعات: أنتم أشد خلقا ام السماء بناها ثم قال: (والأرض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها). وقالوا بان العطف (بثم) في آية (البقرة وفصلت) عطف خبر على خبر وليس عطفًا للفعل على الفعل كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه

قد ثم ساد قبل ذلك جده

فعطف الوالد على الولد، ثم الوالد على الجد (بثم) على خلاف الواقع فسيادة الوالد قبل الولد.

والصواب في ذلك ما وفق به حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما بأن الأرض خُلِقَت قبل السماء كجرم فقط، ثم خلق سبحانه السماء، ثم دحيالأرض بعد ذلك أي خلق ماءها وجبالها ومرعاها وغير ذلك.

قوله تعالى: (ثم استوى إلى السماء)

الاستواء في اللغة: تعلم النضج والقوة ومنه قولهم: استوى شباب الرجل أو بمعنى الاستقامة يقال: استوىأمر فلان، أي استقام، وقيل معناه علا وارتفع ومنه قوله تعالى (فإذا استويت انا ومن معك على الفلك فقل الحمد لله) وقوله تعالى:

(لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم)

واختلف المفسرون في معنى

(استوى إلى السماء):

- قيل: هذا وغيره من صفات الله المتشابهة تمر كما هي ولا تفسر فهو استواء يليق بعظمته سبحانه لا يعلم كذبه إلا هو وهو مذهب السلف.

- وقيل: الاستواء هنا فيه معنى التحويل والانتقال وهو من صفات فإذا نسبت إلى الله سبحانه يجب تأويلها:

- معناها: أقبل وعمد إلى خلق السماء فلم يرد خلق شيء أخر كقولنا عن السهم أنه استوى سريعا إلى هدفه دون أن يلويعلى شيء أخر.

-وقيل:معناه ارتفع وعلا أي أمره وسلطانه لا ذاته سبحانه.

- وقيل (على) هنا بمعنى (إلى) استوى إلى السماء أي تقود بملكها دون البشر.

- وقيل: معناه كمل وأتقن صنعها.

وقيل غير ذلك.(مشار في الهامش إلى انظر البحر المحيط ٢١٧ /١)
والأولى عدم التأويل لأنأفعاله سبحانه لا يعلمها إلا هو.

والآية نصت على أن السموات سبع ولم تذكر عند الأرضين والأدلة الأخرى نصت على أنها سبع مثل السموات ومن ذلك:

قولن تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أي في العدد لا في الصفة والهيئة لأن ذلك مختلف بالمشاهدة والحس فتعين العدد.

– وأيد ذلك الأحاديث المتعددة منها ما رواه مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول:(من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوقه إلى سبع ارضين).

ومنه ما رواه النسائي عن أبي سعيد عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال:(قال موسى عليه السلام يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل لا إله إلاّ الله. قال موسى: يا رب كل عبادك يقول هذا إنما أريد شيئا تخصني به. قال: يا موسى لو ان السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله)(يشار إليه في الهامش:القرطبي).

ثم عقب سبحانه علي عظيم مخلوقاته المتعددة بقوله تعالى:

– (وهو بكل شيء عليم)، وناسب ذكر اسمه العليم هنا بعد ذكره لخلق السموات والأرض والتصرف في العالم العلوي والسفلي، وغير ذلك من الإحياء والإماتة لكل البشر في جميع الأزمان، فيدل ذلك على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء.

الإنسان خليفة الله في الأرض

قال تعالى: (وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني

أعلم ما لا تعلمون) الآيات إلى قوله تعالى: (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). الآيات من ٣٩ إلى ٣٠.

المعنى الإجمالي:

أشارت الآيات إلى تكريم الله سبحانه وتعالى لبني آدم وامتنانه عليهم بأنواع الكرامات، فقد اختار سبحانه بحكمته هذا المخلوق ليكون خليفة في أرضه ومحل عبادته وحمل أمانته، مع ما يظهر من بعض أفراده من الفساد وسفك الدماء، ومع كون ملائكة عن وجه الحكمة في اختياره بكون هذا المخلوق أهلاً لتلقي العلم وأسرار الحكمة، فقد علم سبحانه أدم أسماء كل شيء في الكون مع أن الملائكة لم تعلم ذلك. وأمرهم بالسجود لأدم فاستجابوا طائعين لحكمته وقدره إلا إبليس استكبر ولم يخضع غروراً وكبراً فاستحق الخلود في العذاب. وأمر الله سبحانه أدم وزوجه بسكن جنة الخلد والاستمتاع بكل ما فيها باستثناء شجرة معينة نهياً عنها، وفي ذلك إشارة إلى أنه مخلوق لحكمة اختبار وحمل الأمانة، وتمهيداً لذلك فجرى قدر الله بإغواء إبليس لأدم عليه السلام فنسي وارتكب ما نهاه عنه فأخرجه الله سبحانه من الجنة واهبطه إلى الأرض بحكمته، وجعل العداوة بين ذريته. ثم أشار سبحانه إلى نجاح أدم أبي البشر في الاختبار وأداء الأمانة والرسالة فقد تقبل كلمات الله سبحانه فتاب واستعان بالله ولجأ إلى خالقه فقبله

سبحانه، وفي ذلك دلاله لذريته وأبناءه عن منهج سيرهم مع الله، وإشارة إلى ما يوفقهم في اختبار وبلاء عند ذلك صرح سبحانه بأنه سيبعث هداه ورسالته إلى البشر في الأرض عمن اهتدى بها وقبلها فلا شقاء عليه في الدنيا والأخيرة، ومن كفر وأعرض فمصيره الخلود في النار.

مناسبة الآيات لما سبقها:

لما امتن الله على العباد بنعمة الخلق والايجاد ولأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً. أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتن عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجعله خليفة وإسكانه دار كرامته، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه، وتنبيها على مكانته واختصاصه بالعلم الذي به كمال الذات والصفات.

تحليل الآيات:

قال تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (إذ): متعلق لما ب (قالوا أتجعل فيها) والتقدير: قالوا أتجعل فيها... وقت قول الله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. وإما متعلق بفعل محذوف تقديره: واذكر إذ قالوا. وقيل: هو ظرف في محل رفع على الابتداء والتقدير: ابتداء خلقهم إذ قال ربك للملائكة. وقيل: حرف زائد، ورجح أبو حيان الأول.

(ربك): عبر بلفظ الرب لأنه ذكر قبل ذلك خلق الإنسان والأرض والسماء وغيرها فناسب ذلك، وإضافة الرسول صلى الله عليه وسلم

للرب فيه شرف له وبيان لاختصاصه بمهام الرسالة، وخاطبه هنا للتنويع في الأسلوب بعد أن كان الكلام السابق عن الغائب وكذلك لمزيد اهتمام وتكريم للمخاطب.

(الملائكة): من الألوكة وهي الرسالة، مفردها: ملك. والملائكة أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة، وهي أنواع مختلفة ولها صفات متعددة. والقول هنا موجه إلى جميع الملائكة على الراجح.

(وجاعل): بمعنى خالق أو مصير في الأرض خليفة

(خليفة): يحتمل ان يكون اسم فاعل بمعنى الخالق أي القائم مقام غيره في الأمر، فيكون ادم عليه السلام خليفة عن الله في اقامة شرعه، والحكم في خلقه. يحتمل ان يكون بمعنى المفعول، أي فخلف يخلف في سبقه في الأرض من ملائكة أو الجن كما جاءت بذلك الروايات ن ولا تعارض بين القولين، لأن الخليفة يخلف غيره وقد يكون حاكما أيضا.

واختلف في المقصود بالخليفة هنا فقال جمهور المفسرين هو ادم عليه السلام واستغني بذكره عن ذكر الخلفاء من نسله كما يستغني بذكر أبي القبيلة عنهاكما يقال مضر وهاشم. وقيل لم يقصد هنا آدم بعينه إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). فالمقصود به ولد ادم (عليه السلام) وسماهم خليفة لأنهم يتعاقبون والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع،أكد ذلك أيضا القران في مواضع أخري فقد قال الله تعالى: (هو الذي جعلكم خلائف الأرض) وقال تعالى: (ويجعلكم خلفاء الأرض). ولا تعارض بين القوانين أيضا لأن ادم

عليه السلام خليفة وكذلك ذريته خلفاء الا أن المقصود بمن يفسد في الأرض هم بعض ذريته ولم يقصد به ادم عليه السلام. لأنه لم يحدث منه ذلك مع أنه نبي منزه عن الكبائر والصغائر على الراجح كغيره من الأنبياء.

وذكر المفسرون أسباب متعددة لإعلام الله ملائكته بخلافة آدم – عليه السلام – قبل حدوثها وذلك اجتهادا منهم لأنه لا يوجد دليل نقلي عليه فمن ذلك:

أنه أراد بذلك تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده ليعظموه وقبل (أنه سبحانه أراد بذلك إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه. وقبل أنه سبحانه أراد أن يعلم عباده المشاورة في امورهم ففعل ذلك وهو الغني عن غيره. واما قول المفسرين بأن سبب ذلك يتعارض مع الأصل القطعي في صلة الملائكة كقوله تعالى عنهم(لا يعصون الله ما أمرهم)(سورة التحريم الآية ٦)

وقوله (لا يسبقونه بالقول)(سورة الأنبياء الآية ٢٧)

قوله تعالى (قالوا أتجعل فيها من يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك،قال إني أعلم ما لا تعلمون)

(سفك) بمعنى يصب ولا يستخدم إلا في الدم فقط أما الصب والسفح والإراقة فتستخدم في الدم في غيره من الأشياء المضيعة.

(نسبح بحمدك ونقدس لك)التسبيح هي تعبيد الله سبحانه عن السوء وكذلك التقديس وأصل التسبيح من السبح وهو الجري والذهاب

فالمسبح جار في تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء وكذلك التقديس أي نطهرك عما لا يليق بك في الذات والصفات والأفعال فالتطهير بذلك يكون تأكيداللتسبيح معنى التقديس الطهارة لذلك سمي الوادي المقدس أي المطهر والأرض المقدسة وهي القدس.

التي ينجسها اليهود الأن مع أن الله وصفها بالطهارة وقيل (نطهر أنفسنا لك بالطاعة وقيل المقصود بالتسبيح هنا هو قول الملائكة سبحان الله وهذا هو الظاهر وأكده ما رواه مسلم عن أبي ذو أن رسول الله صل الله عليه وسلم سئل (أي الكلام أفضل؟ قال:ما اصطفى

الله لملائكته سبحان الله وبحمده). (مشار في الهامش إلى: تفسير القرطبي ١/٢٣٦)وقيل: التسبيح هو التعظيم له والخضوع له، ولا منافاة بين تلك لأن قولهم تلك فيه ثبت التعظيم والخضوع له.

وقوله: (بحمدك) حل من (نسبح) أي نسبح حامدين لك لأنه لولا إنعامك وتوفيقك لنا ما استطعنا تسبيحك ولا طاعتك. (مشار في الهامش إلى: انظر زاد السير ١/٤٧، لكشف١١/ ٢٧١)

وقول الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد...) سؤال المقصود به التعجب من استخلاف الله لمن يعصيه ويفسد في الأرض أو التعجب من عصيان الإنسان مع أن الله استخلفه وأنعم عليه، وليس سؤالهم ذلك على وجه الاعتراض على الله أو الحسد لبني آدم لأن هذا يخالف ما قطع به القرآن عن طاعتهم وكمال ذكرهم. وقيل: سؤالهم هذا طلبا لمعرفة الحكمة من ذلك.

وإذا قيل كيف عرفت الملائكة أن بني آدم سىفسدون ويسفكون الدماء؟ الجواب ابنهم عرفوا ذلك إما بالتوقيف من الله سبحانه فسيكون قد أخبرهم بتلك كما روى ابن مسعود وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم، وإما اجتهادا منهم إذا استنبطوا ذلك من لفظ خليفة، فهو يكون حاكما بين الناس وذلك حدوث الظلم والفساد في الأرض.(مشار في الهامش إلى: انظر البحر المحيط ١/٢٢٨)

- قوله تعالى: (قال إني أعلم ما لا تعلمون): أخبر الله سبحانه جوابا على سؤالهم أنه يعلم من الأمور ما لا يعلمه ملائكته، وقد أبهم الله سبحانه هذا العلم الذي اختص به دونهم مما يدل على أن علمه محيط بما لا يحيط به العلماء فيجب بناء على ذلك أن يسلموا له فيما يقدر ويفعل وإن كانوا لا يعلمون وجه الحكمة. وبعض المفسرين قد اجتهد في بيان علمه هذا الذي لا يعلمونه فقيل:

- أنه يعلم بأنه سيكون من بنى آدم الأنبياء والمصلحون والصديقون والعباد والاولياء والعلماء وغيرهم، ولهذه الحكمة جعلهم خلفاء مع أن منهم مفسدين وعصاة ودليل هذا القول سياق الآيات.

-وقيل: انه سبحانه أعلم بمراقب الأمور فإنه قد يعصى من ظاهره الطاعة وقد يطيع منظاهره المعصية والفساد.

- وقيل: هذا العلم مفسر بقوله تعالى بعد ذلك: (إني اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون). وقيل: هو علم في كل علومه التي لا يعلمها البشر ولا الملائكة. وهذا القول أولى لأن

اللفظ عام،ولكونه يشمل ما سبق من الأقوال وغيرها مما لم يذكر والله أعلم.

فقه الآيات:

- خلق الملائكة قبل البشر وأنها مجهولة على التسبيح والطاعة وعدم العصيان بالله.

-تنويه الله سبحانه بمكانة الإنسان واهليته للخلافة والعدل مع أن من جلسه من يعصي ويفسد، وفي هذا تشريف لبنى آدم وحث لهم في نفس الوقت على لزوم الطاعة واجتناب غضب من شرقه وأنعم عليه بالخلافة وحمل الامانة.

- التحذير من الفساد وسفك الدماء وكون ذلك من أسباب الحرمان والخذلان في الدنيا والآخرة.

- التسليم والرضا بكل أفعال الله سبحانه وشرائعه والإيمان بأنها جارية وفق مقتضي الحكمة والإتقان وأن عجز البشر والملائكة عن معرفة ذلك، لكونه سبحانه أختص بعلم عواقب الأمور وبواطنها وظواهرها.

- واستنبط الفقهاء من هذا الآية حكم تنصيب إمام المسلمين. فقد ذهب الفقهاء كافة إلى وجوب ذلك وحكى عليه الإجماع إمام الحرمين والنووي والقرطبي وغيرهم، ومن أدلتهم على وجوب نصب الإمام:

١- هذه الآية: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وما شابهها من الآيات كقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض)، وقوله تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض)وغيرها.

٢- مسارعة المهاجرين والأنصار إلى تنصيب خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته مباشرة، بل استعجلوا ذلك قبل تكفينه وتشيعه صلى الله عليه وسلم.

٣- ومن جهة العقل احتياج الأمة إلى دفع العدو وحماية البيضة واستخراج الحقوق، وإقامة الحدود، وجباية الأموال، ورد الظلم وغير ذلك ولا يتم كل هذا إلا بنصب الإمام، وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وكيفية تنصيب الإمام بإحدى هذه الطرق:

١- النص من الرسول صلى الله عليه وسلم علي الإمام، وقد اختلف في ذلك بين أهل السنة، والجمهور ومعظم العلماء على أنه لم ينص على ذلك، بل نقل النووي الإجماع على ذلك. والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم دل الأمة علي فضل أبي بكر رضي الله عنه وتقدمه في أحاديث متعددة، ففهم منها الإشارة على أنه هو أحق الأمة بخلافته صلى الله عليه وسلم، وأما من قال بأنه نص عليه فبعيد، لأن اجتماع المهاجرين والأنصار في السقيفة وتنازعهم أو لا في تعيين الخليفة يدل على أنه لم ينص على أحد، فالأمة لا يمكن أن تجهل هذا الأمر مع أنه من عظائم الأمور، ولا يمكن أن تجتمع علة خلافه.

٢- أو تكون بالاستخلاف إما أن يستخلف الخليفة قبل موته واحد بعده، كما فعل أبو بكر مع عمر رضي الله عنهما، أو يترك الخليفة الأمر شورى بين مجموعة كما فعل عمر رضي الله عنه.

٣- أو تكون بإجماع أهل الحل والعقد على مبايعة واحد إذا لم يستخلف الخليفة، أو يبايع واحد منهم فقط فيجب التزام ذلك عند الجمهور.

٤- أو تنصب الخلافة بقهر واحد للناس على طاعته فتجب بذلك إذا كان أهلاً للخلافة لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والخلاف.

وأما شروط الإمام فهي:

أن يكون قرشياً على الصحيح وهو قول عامة العلماء، وأن يكون من أهل العلم المجتهدين، حتى يستقل بالأمور المهمة والفتوى فيحسم أمور الخلافة، وأن يكون ذا خبرة ورأي بأمر الحرب والجيوش، وأن يكون ذكرا، وفي كل ما سبق وقع الإجماع من العلماء.

ويجب كذلك أن يكون حرا، عاقلا سليم الأعضاء وعدلا فلا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق.

تفضيل آدم عليه السلام بالعلم

ـ قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتمصادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنباهم

بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيبالسموات والأرض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون).

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال، أراد أن يفصل ذلك، فبين لهم من فضل آدم مالم يكن معلوما لهم وذلك بأن علمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم، فتأكد الجواب الإجمالي بالتفصيل.

تحليل الآيات:

(علم آدم): تعليم الله لأدم عليه السلاميحتمل أنه الهمه علم هذه الأشياء مباشرة، ويحتمل أن يكون بواسطة ملك والأول أظهر. وآدم مشتق من الأدمة وهى اللون أو من أديم الأرض، وهو وجههاوالثاني أصح لما رواه الترمذي وصححه عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على

قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك والخبيث والطيب(مشار إلية في الهامش- تفسير القرطبي ١/ ٢٣٨).

(الاسماء كلها): أختلف في الأسماء التي علمها الله سبحانه لأدم: وقيل: هي أسماء كل شيء في الدنيا جليلاً أو حقيراً، وعلمه كذلك ذواتنا وصفاتها وأفعالها.

وقيل: علمه أسماء مخصوصة وهي أسماء الأجناس دون الأنواع مثل: إنسان، حيوان، طائر. إلخ.

وقيل: علمه أسماء الملائكة والذرية فقط واختار ذلك الطبري لأن الله سبحانه جمعهم بلفظ العقلاء فقال تعالي: (ثم عرضهم علىالملائكة).

والراجح الأول لأن الأسماء لفظ عام يدل علي الشمول والإحاطة،وأكد ذلك ما رواه البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون أدم فيقولون انت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتي يريحنا من مكاننا هنا..) (مشار إلية في الهامش- تفسير ابن كثير ٧٣/١) فدل الحديث على أنه علم أدم أسماء جميع المخلوقات. ويكون في الآية دليل علي أن اللغة مأخوذة توقيفا لا اصطلاحا فإن الله سنحانه علمها لآدم جملة وتفصيلا. وأما التعبير عن الأسماء بلفظ العقلاء فلأن فيهم الإنس والملائكة فغلب لفظ العقلاء لأنه الأكمل.

- قوله تعالى: (ثم عرضهم علىالملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء..) الضمير في عرضهم الظاهر أنه عائد على أشخاص هذه الأسماء وذواتها لا الأسماء فقط، لأن الغرض هو الإظهار، لأنه كذلك عبر عنهم بالإشارة (هؤلاء).

والسؤال في قوله: (أنبئوني بأسماء هؤلاء) مجاز المقصود به تبيكتالملائكة وتعجيزهم، وبذلك لا يكون في الآية دلالة على تكليف ما لا

يطاق لأن الله سبحانه علم عجزهم عن ذلك فسألهم عن هذه الأسماء تبكيتاً لا تكليفاً لهم. (مُشار إليها في الهامش- انظر تفسير الرازي ٢/١٩٢)

قوله تعالى: (إن كنتم صادقين): هذا شرط جوابه محذوف تقديره: (إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون... فأنبئوني بأسماء..) والمعنى إن كنتم مصيبين في زعمكم أن من استخلفه سيفسد في الأرض وليس أهلاً للخلافة والفضائل، فأنبئوني بهذه الأسماء، فبين الله سبحانه للملائكة أنه يعلم من الحكمة في ذلك ما يغيب عنهم ولا يخطر على بالهم.

وقوله تعالى: (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) قدمت الملائكة قبل جوابهم على الله سبحانه تنزيهه وتقديسه اعتذاراً وأدباً معه سبحانه ثم أجابوا: (لا علم لنا..) فنفوا العلم كله عن أنفسهم استصغارا لهم فجاء بلفظ نكرة (علم) ليشمل جنس العلم فاعترفوا بالجهل ثم نسبوا العلم الكامل إلى الله سبحانهوكذلك الحكمة، وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام لعلم الله وحكمته. (مُشار إليها في الهامش- انظر البحر المحيط١/٢٣٨)

قوله تعالى: (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم..) أمره الله سبحانه أن يعلمهم بهذه الأسماء التي جهلوها لتعلم الملائكة أن آدم أعلم منهم تنبيهاً على فضله وعلو شأنه، فهذا تفصيل لفضل آدم بالعلم ودل ذلك أيضاً على شرف العلم فإنه أعظم شيء أظهر به فضل آدم، ثم بعد ذلك أسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم أن يتعلموا منه فحصلت لآدم رتبة الجلال

والعظمة بقدر الله سبحانه، ولذلك فالملائكة تضع أجنحتها وتتواضع لطلب العلم. وفي الآية إظهار لكمال حكمة الله تعالى وعلمه لكل ما غاب لذلك عقب سبحانه بعدها

بقوله تعالى (الم اقل لكم أني اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) وفيه دلالة على أنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله. وان الله سبحانه يعلم السرائر والظواهر أجمع. وقيل: غيب السماوات: ما قضاه وكتبه فيها من أمور الخلق، وغيب الأرض: ما فعلوه فيها بعد القضاء، وقيل: غيب السماء ما غاب عن الملائكة المقربين وحملةالعرش، وغيب الارض ما أخفاه عن أصفيائه من أسرار ملكوته (مشار إليهفي الهامش- انظر البحر المحيط ٢٣٨/١).

فقه الآية:

- فضل الله سبحانه على آدم وذريته بتعليمهم اللغات للتفاهم والتعاون فيما ينفعهم دنيا وآخره لذلك قال تعالى ممتنا عليهم: (خلق الإنسان علمه البيان) فجعل نعمة البيان بعد الخلق مباشرة.

- تواضع الملائكة مع أنهم لا يفترون عن عبادة الله سبحانه فقد تبرؤا من قوتهم وحولهم ونسبوا الفضل والعلم لله سبحانه.

- لا يعلم الغيب الا الله سبحانه، وانه مدبر أمر السماء والارض ولا يعلم أسرار ملكوته إلا هو سبحانه، أو من اطلعه على بعض ذلك من خواصه وأوليائه.

سجود الملائكة لآدم عليه السلام

- قال تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس..) الآيات ٣٣، ٣٤

مناسبة الآية لما قبلها:

لما شرف الله سبحانه أدم عليه السلام بفضيلة العلم وجعله معلما للملائكة

اراد الله أن يكرم هذا الخليفة بأمر الملائكة بالسجود له، ليظهر مزية العلم على مزية العبادة.

تحليل الآيات:

قوله: (اسجدوا لأدم) السجود في اللغة: التواضع والخضوع، وقد اختلف في صفة سجود الملائكة لأدم:

فقيل: السجود المعروف في الشرع بوضع الجبهة على الأرض وكان هذا السجود تعظىم وتحية لأدم عليه السلام طاعة لله ولم يكن عبادة له لأن الله سبحانه لا يأمر بعبادة غيره فإنه كفر.

وقيل: كان السجود لله سبحانه وآدم كالقبلة فقط.

وقيل: هو الانحناء والميل فقط وليس بوضع الجبهة على الأرض.

وقيل: هو مجاز وكناية عن الانقياد والخضوع لأدم عليه السلام وليس سجودا حقيقيا.

والراجح القول الأول لأنه ظاهر فهو السجود المعروف في الشرع ويؤيده

قوله تعالى: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين).(مشار إليهفي الهامش- سورة الحجر الآية: ٣٠) وليس هذا السجود على سبيل العبادة لآدم لكنه تحية له وطاعة لله وقد كان السجود هو

التحية في الأمم السابقة كما سجد يعقوب وبنيه ليوسف عليه السلام واستمر ذلك إلى ان نسخه النبي صلى اللّه عليه وسلم. بما رواه ابن حيان في صحيحه عن واقد من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها..) (مشار إليها في الهامش- تفسير القرطبي ١/٢٥٠. وانظر تفسير الرازي ٢/٢٣٢).

وأما القول الثاني يجعل آدم قبلة فقط فلا يفيد تعظيم حاله كما أراد الله تعالى، ولو كان ذلك لما امتنع إبليس عن السجود لأن سبب امتناعه هو تكبره عن السجود لمن خلق من طين، وأما الثالث والرابع فخلاف الظاهر من معنى السجود.

قوله تعالى: فسجدوا إلا إبليس..) لفظ إبليس على وزن إفعيل مشتق من الإبلاسوهو اليأس من رحمة الله وكونه لم ينصرف لأنه معرفة لا نظير له في الأسماء فشبه بالأعجمي، وقيل هو اسم أعجمي لا اشتقاق

له ولذلك لم ينصرف. (مشار إليها في الهامش- انظر تفسير القرطبي ٢٥٢/١).

واختلف المفسرون في كون إبليس هل هو من الملائكة أو من الجن على قولين:

الأول: أنه من الملائكة واستدلوا له بأمور:

- أن اللّه سبحانه استثناه من الملائكة، وهو يفيد أن إبليس منهم بدليل خروجه من جملتهن بالاستثناء.

- لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان الأمر في قوله تعالى: (وإذ قلنا للملائكةاسجدوا لآدم) متناولاً له، ولما كان مستحقا للذم والعقاب.

ولكان لإبليس العذر في عدم السجود، وهذا القول منسوب لابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وجمهور العلماء.

الثاني: أنه من الجن وليس من الملائكة، وهو قول الحسن والزهري وجماعة ومن أدلتهم:

تصريح اللّه سبحانه وتعالى بكونه من الجن فقال تعالى: إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ..) (مشار إليهفي الهامش- سورة الكهف الآية ٥٠) فهذه الآية نص في المسألة.

- أن إبليس له ذرية كما صرحت الآية السابقة، والملائكة لا ذرية لها. لأنه لا يوجد فيهم إناث، ودليل ذلك أن اللّه أنكر من حكم عليهم بالأنوثة

فقال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا). (مشار إليها في الهامش- سورة الزخرف الآية:١٩)

- أن الملائكة معصومون كما قطعت بذلك النصوص: (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ)، كما أن اللّه جعلهم رسلاً فقال تعالى: (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا)(مشار إليه في الهامش- سورة فاطر الآية:١). ورسل الله معصومون فكذلك الملائكة. والآية السابقة صرحت بفسق إبليس فدل على أنه ليس ملكاً.

أن إبليس مخلوق من نار لقوله تعالي: (خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) (مشار إليها في الفهرس- سورة الحجر الآية: ٣٢)، وأما الملائكة فمخلوقة من نور كما روي مسلم عن عائشة عن رسول اللّه صلّىَ اللّه عليه وسلم أنه قال: (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار...) (مشار إليه في الهامش- تفسير الرازي ٢٣٤/٢ وانظر تفسير الرازي ٢٣٤/٢، وتفسير القرطبي ٢٥٢/١).

والقول الثاني أظهر لصراحة أدلته والاحتمال في أدلة القول الأول أقرب لأن الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعاً فلا يكون إبليس من جنس الملائكة وقد.

تكرر وروده في القرآن كقوله تعالى: (واذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني..) وغيرها، وقد جوز ذلك الزمخشري وغيره من المفسرين(مشار إليه في الهامش- سورة الزخرف ٢٧). ويحتمل ان يكون متصلًا لأن ابليس كان جنيا واحدا من

بين الاف الملائكة مغمورا بهم فغلبوا عليه في قوله (فسجدوا). ثم استثني منهم استثناء واحد منهم، كما تقول أمرت عبدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبدي وهذا قول الزجاج، ويحتمل انه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك معهم فلهذا دخل في خصابهم وان كان من غير جنسهم كما قال ابن كثير رحمه الله.

وأما دليلهم الثاني بانه لو لم يكن من الملائكة لما كان مأمورا بالسجود معهم، فيحتمل انه توجه له أمر بالسجود خاص به من الله سبحانه خلاف هذه الآية ومن ذلك قوله تعالي: (ما منعك ألا تسجد اذ امرتك) فكونه من الجن هو الاظهر وان كانت هذه المسألة لا تستحق ما دار حولها من نقاش بين المفسرين لأنه لا يبنى عليها عمل والله اعلم.

قوله تعالي: (أبى واستكبر وكان من الكافرين):

(أبى): أي امتنع عن السجود، ثم تبعه بقوله: (استكبر) ليدل على سبب امتناعه عن السجود وهو الكبر والتعالي على آدم عليه السلام كما قال تعالى: (انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فكفره الله بذلك فقال (وكان من الكافرين) فيكون ابليس جمع بذلك بين الاباء والاستكبار والكفر فكل من سفه شيئا من اوامر الله تعالى أو امر رسوله كان حكمه كحكم ابليس لعنه الله.

فقه الآية:

علو مكانة آدم عليه السلام وبيان شرفه وتعظيمه لسجود الملائكة له

وفي ذلك تشرف لنسله وتأهيلهم لحمل الأمانة والخلافة عن الله سبحانه.

الكبر والتعالي من الذنوب المؤدية إلى النار والهلاك، وهي أول ما وقع من الذنوب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح: (لا يدخل الجنة من في قلبه حبة من خردل من كبر). (مشار إليه في الهامش- تفسير القرطبي١/٢٥٣). وقيل: إن كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه، وإن كانت خطيئته في معصية فأرجه أي قد يتوب ويشفى منها بخلاف الكبر.

انتقال آدم من دار الثواب إلى دار الاختبار

قال تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة.. إلى قوله تعالى:

(فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون..) الآيات من ٣٥ إلى ٣٨.

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن شرف الله سبحانه آدم عليه السلام برتبة العلم وإسجاد الملائكة له امتن عليه بأن اسكنه الجنة التي هي دار النعيم، ثم أخرجه منها بقدر وجعله اهلا للتكليف وحمل الأمانة.

تحليل الآيات:

قوله تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة...):

(اسكن): من السكن وهي من السكون والراحة، وسمى السكين بذلك

لأنه يسكن حركة المذبوح، وفي مخاطبته آدم عليه السلام بهذا اللفظ تنبيه على خروجه من الجنة وأنها ليست بدار إقامة دائمة له، وفيه إشارة إلى ما قاله جمهور الفقهاء من أن الرجل لا يملك البيت بمجرد الإسكان فيه، وان للمالك إخراجه منه بعد مدة السكن. (مشار إليها في الهامش- انظر تفسير القرطبي ١/٢٥٥).

وزوج آدم هي حواء وسميت امرأة لأنها خلقت من امرئ، وسميت بحواء لأنها خلقت من حي وهو آدم عليه السلام لقوله تعالى: (الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها). (مشار إليه في الهامش- سورة النساء الآية: ١). ولما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء

في الضلع أعلاه لن يستقيم على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها. (مشار إليه في الهامش- تفسير القرطبي ١/٢٥٧)

واختلف المفسرون في تعيين الجنة التي سكنها آدم عليه السلام:

فقيل: هي جنة تسمي جنة عدن في مكان في الأرض أو في السماء وليست جنة الخلد، وهو قول أبي مسلم والجباني. ومن أدلتهم أن آدم عليه السلام لو كان في جنة الخلد لما وصل إليه إبليس، فإن الله تعالى قال عنها: (لا لغو فيها ولا تأثيم)، وقال: (لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا) وغيرها من الآيات. ولأن من دخلها لا يخرج منها لقوله تعالى:

(وما هم منها بمخرجين). ولأنها تسمي دار القدس، أي المطهرة من المعاصي، وهذه الجنة قد عصي فيها.

وقيل: هي جنة الخلد دار الثواب والعقاب المعروفة، وهذا قول جمهور أهل السنة، وحكي الإجماع على ذلك لأن الألف واللام في لفظ (الجنة) لا يفيدان العموم لأن سكني جميع الجنة محال، ولذلك فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، وهي الجنة المعهودة دار الثواب والعقاب، ولأنه ثبت في الصحيح محلجة آدم موسي فقال له موسي: (أنت أشقيت بنيك وأخرجتهم من الجنة)، فلم ينازعه آدم في كونها الجنة المعروفة.

وأجيب عن أدله الفريق الأول بأن الآيات السابقة محمولة على حالهم بعد دخول الجنة دخول الاستقرار والخلود، لا على دخولهم على سبيل المرور والجوار. فقد صح دخول رسول الله صلي الله عليه وسلم الجنة في ليلة المعراج، وأنه رآها في حديث الكسوف. وأما دخول إبليس فدخول تسليط وليس دخول تكريم إن صح أنه دخلها فعلا. وأما كونها ليست بدار تكليف فذلك حق ولكن بعد دخولهم فيها للإقامة الدائمة جزاء على أعمالهم الصالحة، وأما

الدخول الذي يعقبه الخروج بسبب المخالفة، فلا ينافي التكليف فيها ومن ذلك تكليف آدم عليه السلام. (مشار إليه في الهامش- انظر البحر المحيط ١- ٢٥٤، تفسير الرازي ٣-٤).

قوله تعالى: (وكلا منها رغدا حيث شئتما):

أي أكلا رغدا واسعا من أي مكان فيها، فالمراد من الآية إطلاق الأكل من الجنة علي وجه التوسعة البالغة حيث لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة منعهم عن قربها.

قوله تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين):

قال أبو حيان: (نهاهما عن القربان وهو أبلغ من أن يقع النهي عن الأكل، لأنه إذا نهى عن القربان للشجرة، فكيف يكون الأكل منها؟) (مشار إليهفي الهامش- البحر المحيط ٢٥٤/١) فنهاه بلفظ يقتضي المنع من الأكل وما يدعو إليه، وهو القرب، وهذا مثال بين في سد الذرائع كما قال ابن عطية رحمه الله. واختلف المفسرون في تعيين اسم هذه الشجرة، والقرآن أبهمها ولا يوجد دليل على اسمها، ولا فائدة تترتب على معرفتها، فذلك علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به كما قال الطبري رحمه الله.

قوله: (فتكونا من الظالمين):

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وظلمهما هذا لأنفسهما بإخراجهما من الجنة، أو بالأكل من الشجرة المنهي عنها.

وهنا مسألة عقائدية تؤخذ من الآية، وهي هل يقع من الأنبياء ذنوب؟ جمهور أهل السنة على أنه لم يصدر منهم ذنوب حال النبوة لا كبيرة ولا صغيرة، وأجمعوا على أنهم معصومون فيما يتعلق بالتبليغ للدعوة

وكذلك اتفقوا على أنه لا يقع الخطأ منهم في الفتوى عمداً. وجوز الطبري وبعض

الفقهاء وقوعهم في صغائر الذنوب دون الكبائر واحتجوا بما وقع منهم فعلا وحكاه القرآن وثبت تنصلهم وتوبتهم من ذلك كما وقع من آدم عليه السلام هنا وكذلك وقع لغيره من الأنبياء في مواضع من القرآن لا تقبل التأويل في الجملة ولكن من قال بهذا القول اتفقوا على أن ذلك لا يحط من مناصبهم لأنه وقع منهم على جهة الندور أو الخطأ والنسيان أو التأويل، فما وقع منهم من ذلك يعد بالنسبة إلى غيرهم حسنات، ولكنه في حقهم سيئات نظرا لعلو قدرهم إذ قد يؤاخذ الوزير بما ثياب عليه السائس، فحسنات الأبرار سيئات المقربين.

ورجح أبو حيان قولالجمهور: (والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب حال النبوة البتة، لا الكبيرة ولا الصغيرة، لأنهم لو صدر عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة ولعظيم شرفهم وذلك محال، ولئلا يكونوا غير مقبولي الشهادة، ولئلا يجب زجرهم وإيذاؤهم، ولئلا يقتدى بهم في ذلك ولئلا يكونوا مستحققين للعقاب، ولئلا يفعلون ضد ما أمروا به لأنهم مصطفون) (مشار إليه في الهامش- البحر المحيط١/٢٦٢، وانظر تفسير القرطبي ١/٢٦٢، تفسير الرازي ٣/٨)

ويؤكد ما ذهب إليه الجمهور أن الأصل تنزيه الأنبياء عن كل نقص، فما عارض ذلك صاغ فيه التأويل.

وذهب ابن تيمية أن وقوع الصغائر غير المتعمدة من الأنبياء غير منقص لهمفليس من تاب إلى الله تعالى وأناب إليه بحيث صار بعد التوبة أعلى درجة مما كان قبلها منقوصا ولا مغضوضا منه، بل هو مفضل عظيم مكرم، وبهذا ينحل جميع ما يوردونه من الشبه. فبين رحمه الله أن وقوع الذنوب امتحان لهم تكتمل بها عبوديتهم وذلهم وخضوعهم لله تعالى، ورحمتهم كذلك لمن يقع منه الذنب من البشر فكان ذلك سببا في زيادة درجاتهم ورفعتهم كما أن الله

سبحانه لم يقرهم على الخطأ والذنب ولم يأمرنا باتباعهم في شيءنهاهم عنه وتاب عليهم منه(مشار إليه في الهامش- انظر منهاج السنة النبوية بتصرف ٤٢٦/٢)

وقال الزمخشري ممن جوز عليهم وقوع الصغائر: (وماكنت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الطاعات، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيما للخطيئة وتعظيما لشأنها وتهويلا ليكون ذلك لطفا له ولذريته في اجتناب الخطايا، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فكيف يدخلها ذو خطايا جمة (الكشاف ٢٧٥/١)

وعن كيفية وقوع تلك المعصية من آدم عليه السلام فقد أول المفسرون ذلك بأمور:

الأول: أن آدم عليه السلام ما أكل من عين الشجرة المشار إليها ولكنه أكل من شجرة أجرى من جنسها، لأنه حمل الكلام على اللفظ لا على

المعنى فظن أن المراد العين وكان المراد النهى عن جنس هذا النوع من الشجر كقوله صلى الله عليه وسلم: (هذان حرامان على ذكور أمتي) وذلك حين أخذ الذهب والحرير، فإنه أراد الجنس لا العين الذي يملكه بيده فقط.

الثاني: أنه أكل منها ناسيا للنهي، وصحح ذلك القرطبي لإخبار الله سبحانه في كتابه: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما).

ولكن عد ذلك معصية في حقهم لعلو منازلهم ولأنه يلزمهم من التحفظ والتيقظ ما لا يلزم باقي الأمة ولذلك عفى للأمة عن النسيان والخطأ وأخذ به الأنبياء.

وما يؤكد كونه نسيانا من آدم عليه السلام أن الأنبياء بشر يتعرضون لذلك.

وأيضا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (سنقرؤك فلا تنسى إلا ما شاء الله) فصرح بأنه ينسى نبيه صلى الله عليه وسلم إذا شاء ذلك لقدر وحكمة يعلمها، كما نسى في صلاته صلى الله عليه وسلم ليشرع بنسيانه سجود السهو.

الثالث: إن صدور ذلك من آدم عليه السلام يحتمل أنه كان قبل نبوته.

الرابع: يحتمل أنه حمل النهي في قوله تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة) علي نهي التنزيه لا التحريم، واستبعد ذلك البعض لأنه قرن النهي بالوعيد وهو قوله تعالي: (فتكونا من الظالمين)، وكذلك قوله تعالى:

(فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) وهذا يدل علي أنه للتحريم وهو الأصل في النهي (مشار إليها في الهامش-انظر: تفسير القرطبي ٢٦٠/١، تفسي الرازي ١٢/٣). وحتى لو حمل علىالتنزيه فالأنبياء أحرص الناس علىاجتنابه.

الخامس: وقيل: يجوز أن يتأول آدم عليه السلام: (ولا تقربا) أنه نهى عن القربان مجتمعين أي هو وحواء، وأنه يجوز لكل واحد منفرداً أن يقرب، لأن النهي إذا كان معلقاً على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما، كمن قال لزوجتيه: إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان، فإن الطلاق لا يقع بدخول واحدة فقط لأن بعض الشرط لا يعد شرطاً (مشار إليه في الهامش- انظر: تفسير القرطبي ١٦٣/١).

قوله تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه): (أزلهما): إستزلهما أي جعلهما يقعان في الخطيئة، وقيل: أبعدهما عن مرتبتهما في الشرف والطاعة، وقرئ: (فأزلهما) بالألف، أي نجاهما وأخرجهما من الجنة بسبب الوقوع في الخطيئة، والمعنى الثاني مترتب على الأول فلا تعارض.

(الشيطان): هو إبليس وأضيف إليه الفعل لأنه السبب فيه، ونقل في كيفية إغواء إبليس لآدم أقوال لا دليل عليها. لأنه غيب لم ينصب الحق عليه برهاناً، فالأدب عدم الخوض فيه، ولو كان هناك فائدة لنا من ذكره لبينه الله سبحانه. ويفهم من قوله تعالى: (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) أنه شاقهما بذلك والله أعلم.

قوله تعالي: (وقلناإهبطوا بعضكم لبعض عدو).

صفحة رقم ١٦٦

اختلفوا في تخاطب بذلك فقيل:آدم وحواء وابليس، وقيل: ما سبق ومعهم الحية أيضا، وقيل: آدم وحواء وذريتهما، ورجح الزمخشري وغيره الاخير لقوله تعالى بعد ذلك: (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون...) وهذا تكليف يعمم الذرية كلها، والمقصود بالعداوة ما عليه الناس من التعادي والتباغض وتضليل لبعضهم البعض.(مشار إليه في الهامش- انظر الكشاف١/٢٧٤)

وأما الحية فلا تكليف عليها، وابليس خرج قبل ذلك من الجنة وحكم عليه بالطرد الأبدي من الرحمة.

ولم يخاطب آدم عليه السلام هنا، ولم يذكر اسمه كما سبق في آمره بالإسكان: (يا آدم اسكن) لأن ذلك بعد معصيته فلم يؤنسه بالنداء ولم ينوه بذكر اسمه. (مشار إليه في الهامش- انظر البحر المحيط ٢٦٣/١)

قوله تعالى: (ولكم في الارض مستقر ومتاع إلى حين..):

(المستقر): موضع الاستقرار إلى حين، فقيل: هو استقرارهم في القبور، وقيل: استقرارهم في الحياة مدة آجالهم، والأخير هو الراجح لأن الله قدر فيه المتاع وذلك يليق بحال الحياة، ولأنه خاطبهم بذلك عند الإهباط إلى الدنيا وذلك يقتضي حال الحياة (مشار إليه في الهامش- انظر تفسير الرازي ١٩/٣).

فقه الآيات:

في الآيات تحذير شديد من كل المعاصي مهما صغرت، لأنه بسبب هذا الذنب الصغير الذي وقع حال النسيان حصل لآدم ما سبق من الخروج من الجنة فكيف بمن يعصيه ليلا ونهارا!

صفحة رقم ١٦٧

- التحذير الشديد من الاستكبار والحسد والحرص، وهي أول ذنوب وقعت في الارض، فترتب على الكبر والحسد الخروج من الجنة وطرد إبليس من الرحمة أبدا، وترتب على الحرص وقوع آدم في مخالفة النهي الذي ترتب عليه خروجه وذريته من الجنة.

- التنبيه على العداوة الشديدة الأبدية بين إبليس وآدم وذريته من بداية الخلق إلى قيام الساعة، وفي هذا إعذار من الله للبشر بتعريفهم وتحذيرهم من عدوهم.

- عصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر وتأويل ما صدر عنهم مما يخالف هذا الأصل بما يتفق مع علو مناصبهم وأقدراهم، وكونهم أهلا للاقتداء والتبليغ.

قال تعالى: (فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه):

(تلقي): بمعنى أخذ وقبل، أي استقبل آدم هذه الكلمات من ربه بالأخذ والقبول والعمل بمقتضاها، وقري:برفع الكلمات على أنها هي المتلقية

لآدم بمعنى جاءته من ربه فكانت سببا لقبوله ورحمته، وقد جاء تفسير هذه الكلمات في

قوله تعالى: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (مشار إليها في الهامش- سورة الأعراف الآية: ٢٣)

(فتاب عليه): أصل التوبة الرجوع، فالتوبة من آدم عليه السلام الرجوع عن فعل النهي، وهي من الله رجوعه عليه بالرحمة والثواب، ولم تذكر حواء في قبول التوبة إما لأنه لم يجر لها ذكر في الآية، أو لأنه يكتفي بذكر أحدهما إذا كان فعل الاثنين واحدا كقوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه). (مشار إليه في الهامش- سورة التوبة الآية: ٦٣)، أو لأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها، أو لكون

المرأة تابعة للرجل في الغالب فلم تذكر.(مشار إليه في الهامش- انظر تفسير القرطبي ٢٧٧/١) ثم ختم الآية بوصف نفسه سبحانه بقولة: (إنه هو التواب الرحيم).

إما لأنه سبحانه بقبل توبة العبد حتى لو تكررت منه المعصية في كل وقت بخلاف البشر، أو لكثرة من يعصي ويقبل توبته من البشر.

قوله تعالى: (قلنا اهبطوا منها جميعا):

كرر أمره لهما بالهبوط مرة اخري وذلك إما لأنهما كانا هبوطين الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من السماء إلى الارض، وهذا ضعيف لأنه غيب لا دليل عليه، ولان الضمير في (منها) في الهبوط الثاني يعود إلى الجنة المعهودة، ولأنه قال بعد الهبوط الأول: (ولكم في

الارض مستقر) فدل على كونه هبوط إلى الأرض مباشرة لا إلى السماء، أو كررهما للتأكيد والتغليظ. أو لأنه تعلق بكل أمر معنى خلاف الآخر، فعلق بالأول العداوة وبالثاني إتيان الهدى. أو كرر ذلك ليبين أن الأمر بالهبوط إلى الارض باق بعد التوبة لأنه امر قدري لحكمة أرادها الله وهي خلافة آدم وذريته. (مشار إليهفي الهامش- انظر تفسير القرطبي ٢٧٩/١، تفسير الرازي ٢٨/٣)

قوله تعالى: (فإما يأتيكم مني هدىفمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون..):

الآية جملتان شرطيان، وجواب الشرط الأول

فإما يأتيكم.. هو جملة الشرط الثاني: (فمن تبع هداي فلا خوف..) فالله سبحانه وعد من تبع هداه بعدم الخوف والحزن.

والمراد بالهدى في الآية إما الكاتب والرسل، أو القران، أو الدلائل المودية إلى الله سبحانه عموما سواء الدلائل العقلية أو الشرعية، وهذا أولى لأنه أعم، وكأن الله سبحانه يقول لآدم وذريته: وإن كانت اهبطكم من الجنة إلى الارض فقد انعمت

عليكم بما يوصلكم مرة اخرى اليها مع الدوام فيها ابدا.

صفحة رقم ١٦٩

فالآية وعدت من اتبع الهدى حقا علما وعملا بفعل الطاعة واجتناب المعصية بدخول الجنة، وهي مع وجازتها جمعت كل انواع الهدى

والدلالة مع التأمل والنظر فيها، ووعدت بكل أنواع الخير والعافية لمن تبع ذلك لأن زوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات، وزوال الحزن يقتضي الوصول إلى كل اللذات، وهذا غاية الإيجاز والإعجاز.

وقدم عدم الخوف لأن زوال ما لا ينبغي مقدم على طلب ما ينفع، ولأن انتقاء الخوف فيما هو آت أكد من انتفاء الحزن على ما سبق، ولذلك نكر (خوف) لأنه أبلغ في باب النفي. وعبر بالضمير (هم) في قوله: (ولا هم يحزنون) إشارة إلى اختصاصهم فقط بعدم الحزن بخلاف غيرهم. ونفي الخوف والحزن عن المؤمن إما يكون مطلقا في الدنيا والآخرة كما هو ظاهر الآية، وإما أن يكون المقصود نفيهما في الآخرة فقط كما دل عليه سياق الآية ولأن المؤمن لا ينفك عن ذلك في الدنيا وهذا هو الراجح، ويؤيده لفظ (عليهم) فإنه يفيد نفي استعلاء الخوف والحزن عليهم لا تفي لمطلقهما وفي ذلك إشارة إلى عدم انتقاء الخوف والحزن عنهم كلية. فالآية تدل على أن المتبع الهدى لا خوف عليه في القبر ولا عند البعث ولا في موقف القيامة والصراط ولا في الأخرة عموما، وأكد ذلك قوله تعالى: (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة...). فإن كان موقف القيامة شديد إلا أنه مخفف على أهل الإيمان ونهايته إلى سعادة وأمن دائم لهم.

ثم ختم الله سبحانه بمقابل ذلك ما يحدث لمن خالف الهدىوكفر وكذب بآيات الله تعالى فقال: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون): عطف التكذيب بالآيات على الكفر ليدل على أنه الكفر بالله لا كفر النعمة والضمير المنفصل (هم) وكذلك الإشارة إليهم

(بأولئك) يفيد كل ذلك اختصاصهم بالنار وأنها خلقت لهم فقط، كما خص المتبع الهدى بالجنة

وعدم الخوف والحزن. ووصفهم بأنهم أصحاب النار، والصحبة هي الملازمة الدائمة، فهم لا ينفصلون عن النار أبدا، وأكد هذا المعنى بقوله تعالى: (هم فيها خالدون). فهذه جملة في محل رفع خبر ثان و(أولئك) وهي مفسرة المعنى الصحبة فهي تفيد دوام الملازمة لا مطلق المحبة لغة. (مشار إليه في الهامش- انظر البحرالمحيط١/٢٧٦، تفسير الرازي ٣/٣٠)

فقه الآيات:

- مداومة العبد على التوبة لأنه لا ينفك عن التقصير أو فعل المنهي عنه فإذا كان الأنبياء شأنهم ذلك مع علو قدرهم فالعبد أولى بذلك.

- يجب ان تقترن التوبة بالندم الشديد والبكاء والحزن على التفريط اقتداء بتوبة آدم عليه السلام.

- في الآيات إشارة إلى كون الإنسان لا ينفك عن المعصية، وبيان لرحمة الله بشرع التوبة وقبولها لمن أداها بشروطها، وفي هذا دلالة على عدم اليأس والأمل في رحمة الله وعفوه في الدنيا والأخرة مهما عصاه الإنسان إذا تاب.

- رحمة الله سبحانه بالبشر بعد إخراجهم من الجنة يشرع لهم ما يدفع عنهم الخوف والحزن، ويأمنهم من أهوال الدنيا والأخرة إذا اتبعوا ذلك.

المصادر

١) الأنساب للسمعاني

٢) الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار

٣) إحياء علوم الدين للغزالي

٤) الإمام الطبري للزحيلي

٥) البداية والنهاية لابن كثير

٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/ محمد محمد أبو موسي

٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير

٨) تاريخ بغداد للخطيب

٩) التفسير والمفسرون للذهبي

١٠) التفسير الكبير للرازي

١١) جامع البيان للطبري

١٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

١٣) الرد الوافر لابن ناصر الدمشقي

١٤) زاد المسير لابن الجوزي

١٥) سير أعلام النبلاء للذهبي

١٦) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي

١٧) صحيح مسلم للنووي

١٨) طبقات المفسرين للداودي

١٩) فتح الباري لابن حجر

٢٠) الكشف للزمخشري

٢١) الفهرست لابن النديم

٢٢) وفيات الأعيان لابن خلكان

٢٣) مقدمة ابن خلدون

٢٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي